هدى حمد

سندريلات مسقط

رواية



دار الآداب

سندريلّات مسقط

سندريلّات مسقط

هدى حمد / روائيّة عُمانيّة

الطبعة الأولى عام 2016
ISBN 978-9953-89-523-9

هدى حمد

سندريلّات مسقط

رواية

دار الآداب ـ بيروت

«ينبغي أن تكون صبورًا   اجلس على مبعدة منّي قليلاً   سأرمقك بطرف عيني، ولا تقل شيئًا. فاللغة هي مصدر الخلاف. لكن بإمكانك أن تقترب منّي شيئًا فشيئًا»

الأمير الصغير

الجنِّيّات ما عدنَ يأتين لمسقط كما في سالف الأزمان، ليزحنَ قليلاً من وطأة الواقع. الجنِّيَّات اللواتي يطرن ويتشقلبنَ ويُغيِّرن أشكالهنَّ، ويُشغلن الناس ليل نهار بأشياء كثيرة ما كانت لتحدث لولاهنَّ.

الجنِّيَّات هجرنَ مسقط منذُ أن أصبحت مُضاءة بالكهرباء، ومنذ أن تجمَّد الناس في منازلهم الإسمنتيَّة، وأصبح هدير مكيِّفاتهم وأصوات التلفاز أعلى من أصواتهنَّ. بكثير من الدقَّة حدث ذلك، عندما انطفأ التأمُّل ومات الخيال. حتى إنَّ واحدة منهنّ ـ أعني الجنِّيَّات ـ اصطدمت ذات مساء بـ «الدشّ» فوق سطح أحدهم وماتت دون أن يُثير موتها أيّ ضجَّة تُذكر!

لقد انسحبت الجنِّيَّات إلى جبال مُظلمة وبعيدة، وبقين هنالك يحصين الخيبات. لم تعد هنالك ظلمة للنخيل ليختبئن خلفها، ولا أفلاج ملتوية يسبحن فيها، لم تعد هنالك نساء يخرجن ليخْطِبْن من

الصحراء، أو يمشين ليلاً بالقرب من المقابر مُسبِّحات ومرتجفات، لم تعد هنالك امرأة واحدة تجلب الماء من بئر بعيد، أو تنهض امرأة أخرى فجرًا فتذهب إلى حظيرتها قبل أن يصحو المؤذِّن للصلاة، مُتعلِّلة أنّه الوقت الأنسب لحلب بقرتها، بينما في واقع الأمر تنتظر حبيبًا يُواقعها الغرام. يا الله. كم كان يُسعد الجنِّيَّات مجرَّد أن يلتبس الأمر على أحدهم فيصرخ: «هنالك جنِّيَّة»!

عمَّتي مزنة التي كانت تقول «النهار حال حذْ والليل حال حذْ»، كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تتحوَّل إلى سندريلَّا أمّي وأبي والطبيب أدلوا بمبرِّرات مختلفة لعدم تمكُّنها من ذلك، ولكن وحدي وحسب من كانت تعرف أنّ بئر جنِّيَّات عمَّتي جفّ. جفَّ أبكر من المتوقَّع.

لكن حتى وإن افترضنا جدلاً بأنّ جنِّيَّات مسقط مُتْنَ جميعًا، أو اختبئنَ بخجلٍ، لأنّ أحدًا لم يعد يستعينُ بهنّ أو يفكِّر بأوجاعهنَّ في تلك العزلة، فإنّ تلك القوى الخارقة للتحوُّل لا محالة موجودة في مكان ما، ربَّما تكون مطلقة في الهواء، وكلّ ما تحتاج إليه، هو كائنات قادرة على التقاطها، أو لنقل لديها الاستعداد لتفعل.

وهذا ما حصل تحديدًا للسندريلّات ـ وإن كان بعضهنّ ينكرُ الأمر ـ سأقول ذلك بجرأة الآن. نحن السندريلّات نتمتَّع الآن بقوى الجنِّيَّات الخائبات.

زبيدة

في مثل هذه الليلة من كلّ شهر، تهربُ السندريلّات من قرف البيت والأولاد والأزواج المُتطلِّبين، يخرجن غير مباليات بأحد، وغير مُستعدَّات لتأجيل هذا الموعد على وجه الخصوص. ورغم إدراكهنَّ أنّ الزمن سيركض بسرعة إلَّا أنّهنّ يبْذُرن الوقت ويروينه لينمو على مهل.

في مثل هذه الليلة تحديدًا، سيتوقَّف الأزواج عن انتظارهنّ، وسيتوقَّف الأبناء الصغار عن البكاء، وسيقبلون بالخبز المحمَّص والبطاطا التي سيطبخها الآباء نيئة في أحسن الأحوال وبأطراف تشي بأنَّ البطاطا المُملَّحة دخلتْ إلى الزيت في غير أوانها، لكنَّ الأبناء سيأكلون على مضض، وهم يقولون في أنفسهم: «إنّها ليست سيِّئة تمامًا، كما أنّها ليست ليلتنا».

بعض السندريلّات الودودات جدًّا، يُحضِّرن العشاء ظهرًا إلى جوار الغداء، كي لا يبذلَ الآباء جهدًا أكثر من التسخين. لكنَّ أغلبهنَّ لا يشعرن بأيٍّ وخز من وخزات الضمير، فهذه ليلتهنَّ، ولا يرغبن في

إفسادها بالعمل الكثير.

لكنَّ الآباء والأبناء على حدٍّ سواء يعجزون عن تصوُّر ما يحدث لهنّ في هذه «الخروجات»، فهنَّ يتغيَّرن. يتغيَّرن لدرجة ألَّا يعود لأحدهم القدرة على تذكُّرهنَّ. يتجوَّلن في مسقط إلى أن يستقرّ بهنَّ المكان في ذلك المطعم المُطلّ على شاطئ القرم، والذي تحوَّل اسمه بقدرة قادر إلى مطعم السندريّلات.

إنّهنَّ يتغيَّرن حقًّا، تتغيَّر روائحهنَّ، وبطبيعة الحال ليس تحت تأثير العطور، فثمَّة شيء ما يتعلَّق بما تفرزه هذه الأجسادُ المتحفِّزة الليلة، تختفي البثور من وجوه البعض، وتضمر بعض الكروش النافرة لتصبح الفساتين مستوية تمامًا، بل إنّ الشيب الذي قد تسرّب خلسة إلى سواد شعر البعض، سيبدو في غفلة مُقدَّسة أشبه بلمعة جذَّابة ولافتة. الحقيقة أنّ أحدًا من المارّة سيعجز عن القول إنّ إحداهنّ لا تتحلَّى بدرجة من درجات الجمال. أيّ درجة منه، بل إنّ أحدهم سيعجز عن التخلِّي عن فضوله، حتى وإن كان مُتعجِّلاً، أو مهمومًا، سيفعل ذلك بحركة لاإراديَّة، حتى أولئك غير المعنيِّين بالنساء، لن يتمكَّنوا من إخفاء ذهولهم، وسيغدو البعض منهم، البعض القليل تحديدًا مُبالغًا في تخيُّلاته، وأحلامه المتوهِّجة بالشغف.

حتى السندريّلات العاديَّات جدًّا، صاحبات الحظّ المُتعثِّر، سيصبحن الليلة نساء أخريات، وعندما يقفن أمام المرآة، سيتأكَّدُ هذا الشعور، وستقول إحداهنّ لنفسها من دون أن تزيح تلك النظرة عن وجهها المنعكس: «يكفي أن أصدِّق ذلك وحسب».

كلُّ السندريّلات الهاربات جميلات الآن، قلنَ ضاحكات: «من

الجيِّد أنّ الجنِّيَّات قادرات حتى اليوم على نثر غبار النجوم فوق رؤوسنا».

السندريلّات لسنَ كحالهنَّ في البيت. لسنَ بالبيجامات الداكنة، ولا بالشعر المربوط والذي تفوح منه رائحة زيوت تقوية بُصيلات الشعر، ولا بمئزر الطبخ، وأظافرهنّ ليست مُتكسِّرة، ولو أنّ أحدنا تجرَّأ على لمس تلك الأيادي الآن، لما صدّق أنّها كانت تُعالج أشغالاً عديدة، وبعضها لا يخلو من القرف قبل سويعاتٍ قليلة. لو دقَّقنا أكثر لاكتشفنا أنّ كعوب أقدام السندريلّات ليست جافَّة ومتشقِّقة كما هي عادة.

وأكثر من هذا، لا يمكنك أن تتصوَّر أنّ تلك البطون قد أنجبت من قبل، ليست مُتهدِّلة ولا توجد خطوط بشعة وداكنة قرب السُرّة. بطون مشدودة إلى ظهور مُشرئبَّة، وكأنَّما عجلات الزمن لم تمرّ عليها بعد. الصدور الممتلئة لا تشي بالخراب الذي خلّفه الصغار، وهم يمصُّون مُتعهم الأولى في الحياة. بعبارة دقيقة تمامًا، تبدو هذه السندريلّات الاستثنائيَّات كمن خرج للتوّ من على أحد أغلفة المجلَّات.

إنّهنَّ جميلات، ويملكن مُتَّسعًا من الوقت لالتقاط الصور. حتى إنّ الجرسون لا يتأفّفُ أبدًا من طلباتهنّ المستمرَّة بالتقاط الصور، وبأكثر من هاتف أيضًا. الجرسون يفعل ذلك بفرح كبير الآن، رغم أنّه عادة ما كان يتجنَّب ذلك مع زبائن آخرين، فالأمر ليس ضمن قائمة أعماله، ولا يأخذ مكافأة جرَّاء الوقت الذي ينفقه في تصوير الوجوه المبتسمة، والتي بالكاد ترمقه بإيماءة شكر صغيرة، أو ببقشيش ضئيل

فوق فاتورة الحساب.

ولكنَّه ـ أعني الجرسون ـ ولسببٍ يجهله، لا يتمكَّن من تجاوز السندريلّات. فهنَّ لسنَ زبونات عاديَّات، وقد سبق أن قال لمديره ذات مساء: «يجلبن الحظّ يا سيِّدي!»، ولذا لم يتوانَ المدير هو الآخر عن إلقاء التحيَّة مُتحجِّجًا بالسؤال عن مستوى الخدمة المقدَّمة، ولكنَّ السندريلّات لا يلتفتنَ لأحد البتَّة ولا حتى للمدير، وكأنّ غشاء فاصلاً يمكثُ بين الطاولة السحريَّة والطاولات المجاورة.

بل إنّ المارّة والجالسين بالقرب، يُخفضون أصواتهم، ويُفضِّلون لو أنّهم يكتفون بتأمُّل السندريلّات وهنّ يأسرنَ الجميع في مسقط، ويقتنصن فتنة الدقائق والحكايات من مكان خفيّ.

النساء العاشقات خلف الطاولات المجاورة والخارجات في مواعيد غراميَّة، لا يشعرنَ بالغيرة ولا بأيٍّ خوف أو وجل، ولا يغضبن ولا ينتفن شَعْر العُشَّاق أو يقرصنَ آذانهم عندما يُفضِّلون أن ينظروا إلى السندريلّات ويستمعوا بشغف لما يُحكى. يغدو الأمر وكأنّ الجميع دخلوا فجأة إلى فيلم سينمائي عجائبيّ.

العاشقات لا يخشين أبدًا من السندريلّات الهاربات، فعلى الأرجح لم يخرجن الليلة للبحث عن أمير. فعلى الرَّغم من الاختلاف الشاسع فيما بينهنَّ، ـ أعني السندريلّات ـ إلَّا أنّهنَّ يتَّفقن على شيء واحد ومفصليّ أيضًا، «الأمراء يجلبون التعاسة غالبًا، وإن بدا الرقص معهم مُسلِّيًا»، لذا من الجيِّد عدم التفكير بهِم الليلة.

سيُنهي الآباء في هذه الليلة الواجبات مع الأولاد، سيكون أغلبهم

بربع ضمير أو نصف ضمير في أحسن الأحوال؛ وسيبتهجُ الأبناء، لأنّ الآباء أكثر مرونة من الأمَّهات. سينشغل الآباء بالتلفاز والهواتف، بينما يُشتِّت الأبناء انتباههم بين ثلَّاجة المطبخ والتلفاز والكتب. في هذه الليلة، سيسرفُ الأبناء في تناول الحلوى الشهيَّة، متجاوزين حصَّتهم الإجباريَّة من الحليب الطازج وشرائح الخيار. الحقيقة، الآباء هم من أحضروا الحلويات منذ الظهيرة، وهم من تعمّدوا وضعها وراء علب الحليب البلاستيكيَّة في الثلَّاجة، والأبناء يحفظون مكانها عن ظهر قلب، ويعرفون موعد تناولها. الأمَّهات بالتأكيد انتبهنَ لهذه الحركة الخبيثة، ولكن وهنّ يتحوَّلنَ إلى سندريلّات لا يعود الأمر مهمًّا «فماذا لو أكثروا من تناول الشوكولاتة والحلوى الليلة. ماذا سيصيب العالم؟».

غالبًا ما يُصيبُ الآباء هدفهم المنشود، فالأبناء يتناولون الحلوى، ويمكثون كحملان وديعة أمام شاشات التلفاز، أو أجهزة البلاي ستيشن. يتساءل الآباء كلَّما التقوا ببعضهم بعضًا في مناسبات مختلفة: «لماذا تتشكَّى الأمّهات من الأبناء. إنّهم ليسوا وحوشًا ضارية إلَّا في وجودهنّ؟». يمدحون بعضهم بعضًا، لأنّ تلك الليلة تمرّ بسلام كما يُراد لها. لا أحد من الأطفال يمرض أو يتقيّأ، ولا أحد منهم يبكي أو يفتقد أمّه، حتى الرُضَّع، لا يفتقدون أمَّهاتهم، وتبدو لهم تلك الليلة مميَّزة جدًّا لخوضها من دون دموع.

تبديل الحفاض هو الأمر الأكثر سوءًا والأكثر إزعاجًا للآباء الذين ما يزال أطفالهم دون الثالثة من العمر، ولكنّ الآباء توصَّلوا إلى فكرة لم تخطر أبدًا على بال الأمّهات من قبل. الفكرة الجهنَّميَّة، والتي تبادلها الآباء فيما بينهم هي: «ترك الأبناء دون حفاض». لقد تبادل

الآباء هذه المعلومة بسرِّيَّة تامّة. «ترك الأبناء بدون حفاض شيء جيِّد. إنّهم لا يتبوّلون ولا يتغوّطون، ويُصبحون في اليوم التالي على درجة عالية من النظافة». الأمَّهات لا يحاولنَ أبدًا تغيير طريقتهنّ التقليديَّة في النظر إلى الأشياء، يتوارثن خبرات قديمة جدًّا، ولذا فهنّ بائسات جدًّا.

ها هم الآباء والأبناء على حدٍّ سواء يتمكَّنون من العيش بسعادة وهناء دون الأمَّهات العصبيَّات ودون الحليب ودون الحفاض والقوانين المنزليَّة الزائدة عن الحاجة. «ماذا لو نام الأطفال دون أن يغسلوا أسنانهم الليلة؟» هل يُعقل أن ينتهز التسوُّس الفرصة وينخر الأسنان هذه الليلة دون كلّ الليالي؟

البنات الصغيرات يمشين بشعر منكوش، ماذا سيحدث لو كان شعر البنات منكوشًا. لا شيء البتَّة. يتساءل الآباء: «عندما كنَّا ننظر إلى الأمَّهات يركضنَ خلف البنات بالزيوت والأمشاط، وتتأذَّى آذاننا بصراخ الصغيرات، كنّا نُفكِّر كثيرًا بجدوى أن تكون للبنات شعورًا طويلة ومُسرَّحة. فها هنَّ الصغيرات يلعبن، ويملكنَ من المرح ما يكفي لإبعاد الشعر المتطاير عن الوجوه الضاحكة. بل إنّ ذلك يُضفي جمالاً ما كنَّا لندركه نحن الآباء. يجدر بنا القول البنات لطيفات جدًّا إلَّا مع الأمَّهات الموسوسات».

قال واحد من الآباء بجدِّيَّة: «تبدو إمكانيَّاتنا أفضل ممَّا توقَّعنا»، فيردّ آخر على كلامه: «ولكنَّنا لا نريد تبديل مواقعنا على كلّ حال»، قال الثالث بحماس: «نحن لا نتشكَّى من هذه اللعبة. نفعل ذلك بإتقان، وعلينا أن لا نتفاجأ من قدر الانزعاج الذي سيترتَّبُ لاحقًا».

يضحك الرابع: «المُضحك في الأمر أنّ زوجتي تسأل الأولاد واحدًا واحدًا بعد هذه الليلة العظيمة، فتنفجر غيظًا، لأنّ الليلة مرّت دونما كوارث تُذكر».

يتسرَّبُ الغيظ حقًّا، لأنّ ما يفعلنه بمشقَّة يفعله الآباء وهم يبتسمون، فالآباءُ لا يفوِّتون على أنفسهم مشاهدة الأفلام والمباريات المُهمَّة، ولا يتذمَّرون ولا يُضايقون نزهة السندريلّات بكثرة الاتِّصالات. يتكاثر الغيظ كالفطر السامّ في صباح اليوم التالي، إلَّا أنّ مجرَّد تذكُّر تلك الليلة المباركة والمحفوفة بالحكايات، حيث كنّ مُنتشيات وراقصات ومجنونات ويفعلن ما لا يخطر على بال أحد، مجرَّد تذكُّر ما حدث يُذهب التعاسة ويجلي كآبات غير محتملة.

* * *

ها هنَّ يجلسن الآن، وقد ضممن طاولتين إلى جوار بعضهما بعضًا ورغم أنّ المطعم يحظُر على الزبائن التسكُّع في المطبخ إلَّا أنّ السندريلّات يدخلنَ معًا الحقيقة لم يعد ذلك يُفاجئ الطبَّاخين، إذ يُفضّلن التحدُّث إليهم. ويحدث أيضًا أن يصفنَ بدقَّة ما يرغبن به من طعام ومن مشاريب. أحيانًا أخرى، يخلطنَ أشياء غريبة وغير متوقَّعة بعضها بالبعض الآخر. بل إنّ رئيس الطبَّاخين ضمّن بعض ما حضَّرنه من أطباق ضمن قائمة المطعم بأسمائهنّ الحقيقيَّة، فالزبائن يُشيرون لتلك الأطباق ذات الرائحة الشهيَّة التي تعصر قلوبهم، وتجعل اللعاب يسيل بشكل تلقائيّ وغير متوقَّع من أشداقهم.

يتمنُّون لو يحصلون على شيء مُشابه. تأسرهم تلك الرائحة وتقودهم لشيء يعجزون عن تذكُّره آنذاك. يقطعون شهيَّة أحاديثهم ليحاولوا بجهد هائل تذكّر ما تقوله تلك الرائحة لهم. إنّها تشير لذكريات بعيدة، إلى أشياء منسيَّة أو مُنطفئة. وكأنَّ هنالك يدًا خفيَّة

تأتي وتشعل فتيلها، فتضجّ أرواحهم، ويبدو بعضهم في نشوة مريبة. الروائح تُسكرهم، فتطفو على أسطح الوقت لذّة لا يمكن تصوُّرها أو كتمانها، لذّة لا تقلّ عن لذّتهنّ أيضًا، ولكنَّ هؤلاء المجاورين ـ بأيّ حال ـ لا يمكنهم تجاوز دور المراقبة عن كثب، لا يمكنهم إلّا امتصاص حرارة أجسادهنّ التي بدأت تسري في الهواء، كما لا يمكنهم أن يكونوا أكثر من إطار لصورتهنّ الجماعيَّة، أو مقاعد إضافيَّة تحت خشبة مسرحهنّ الهائل.

لا أحد يمكنه الليلة بوجه خاصّ أن يختطف البطولة. لن يموت الليلة أحد مُهمّ، ولن تنجب امرأة طفلها الأوّل أو الأثير إلى قلبها، ولن يُسرق متجر من المتاجر التي يمكن أن يُكتب عنها في الصفحة الأولى، ولن يُعدم أحد من المتكلِّمين في التابوهات المغلقة، ولن يتزوَّج حبيبان منسجمان مهما تحدَّثت الأبراج بعكس ذلك، ولن يترقّى موظَّف غلبان، لن يكون هنالك حدث استثنائيّ الليلة، سوى ما ستعكفُ السندريلّات على حكيه. لن يحدث الليلة شيء خارج ما يفكِّرنَ به.

في هذه الليلة، تفتحُ السندريلّات أبواب الغرف السرِّيَّة، ليحكين كلّ ما يعبرُ فلاتر حياتهنّ الحسَّاسة جدًّا فالأسرار قهوة النساء وشغفهنّ وسرّ توهُّجهنّ. لا يمكن لأيّ سندريلّا أن تكتم حكايتها الليلة «إنّ ذلك فألٌ سيِّئ»، كما قالت ريّا، على الرَّغم من أنّها أكبر السندريلّات سنًّا وأكثرهنّ تكتُّمًا، ولكنَّها أدركت متأخِّرًا جدًّا أنّها ما عادت تحتمل سرّها، ولذا يمكن للحكي في ليلة استثنائيَّة كهذه أن يثير قليلاً من البهجة.

ترفع تهاني كأس عصير التفَّاح الذي مزجته بنفسها مع عصير التوت والعنب وشرائح البرتقال والتفَّاح الأخضر، ترفعه عاليًا كنخب احتفاليّ، وتوشكُ على قول شيء ما لفتحيَّة التي ما تفتأ تعدِّلُ من هيئتها من حين لآخر، بينما الرائحة تخطفُ الانتباه وتوقف المارّة. تبدو سارة في أبهى حلّتها وهي تبتسم، وكأنَّها تمشي على سجَّادة نجوم السينما. أمّا نوف، فتحتفظ بملامح محايدة ولا تُعطي انطباعات كافية

لمن يبحلق فيها، ربّما هي الأكثر رصانة وجدِّيَّة بينهنّ، رغم أنّ تقاسيم وجهها تشي بالعطف، بينما ربيعة وعليا متجاورتان الآن، وثمَّة همس متقطِّع يتبادلنه. فم ربيعة ملتصقٌ بأذن عليا، وسرعان ما يصبح فم عليا ملتصقًا بأذن ربيعة.

كثيرًا ما كان رئيس الطبَّاخين يشعرُ بخيبة أملٍ، فرغم اجتهاده ومراقبته الدقيقة لما يفعلنه في مطبخ المطعم، إلَّا أنّه لم يسبق أن أَعدّ طبقًا كما يفعلن، وبالرائحة الخاصَّة ذاتها رغم أنّ الزبائن يأكلون أطباقه بشهيَّة ويطلبون المزيد منها، إلَّا أنّه كان متأكِّدًا في أعماقه أنّه لا يصنع شيئًا ذا قيمة، لا يصنع شيئًا مُتفرِّدًا وخارج المألوف كما يفعلنَ بخفَّة وفي وقت قصير. في لحظات خذلان مؤسفة، رغب رئيس الطبَّاخين أن يُغادر مطبخه الصغير المُطلّ على شاطئ القرم، ليعود إلى مدينته الصاخبة، ولكن كان لديه شيء جديد يتعلَّمه في كلّ مرّة، الأمر ليس أقلّ ممَّا فعلت سارة بمرقة الدجاج المغمَّسة بالخبز. لقد سجَّل بدقَّة الخطوات، سجَّل لحظات تحمير البصل ولحظة إلقاء الثوم والكزبرة والبهارات الأخرى. لم تكن سارة دقيقة، كانت تلقي الأشياء فوق بعضها بعضًا لم تكن تعطي أيّ دلالة على المهارة، كانت تفعل ذلك كما تُملي عليها الفطرة أو التعوُّد وحسب، ولكنَّ الرائحة كانت تقول شيئًا آخر دائمًا. يتذوَّق رئيس الطبَّاخين مرقتها، فتكبر الحسرة في روحه. تضحك سارة وهي تقول: «السرّ ليس في المقادير يا عزيزي».

بقي رئيس الطبَّاخين يلاحقُ السرّ لأشهر طويلة، منذ تردُّدهنّ على مطعمه، ولكنَّه يئس في الحصول عليه. تزيد عليا من اضطرابه وهي تضيف: «شيء منك يسقط في طبقك، لذا لن يكون طبقك كما هو حال أطباقنا لأنَّنا ببساطة نحن وأنت لسنا الشيء نفسه». ورغم تهافت

الزبائن على طلب أطباقه التي يحضّرها، إلَّا أنّه يتأكَّد في كلّ مرّة بأنَّ ثمَّة ما ينقصُ هذه الأطباق، ولم يكن قادرًا على تصديق فكرة وجود شيء آخر خارج المقادير التي أفنى حياته كلّها في ضبط معاييرها، وتعلُّمها من الكتب، وبلغات مختلفة من العالم. لا يمكن لعقله الدقيق أن يُصدِّق ما يحدث على مرأى من عينيه.

فتحيَّة لا تُلقي بالاً بالمقادير أيضًا ها هي تسكب الملح والفلفل الأسود كما يتسنَّى لها. تقطِّع البصل قطعًا غير متساوية، بل وتضع المحتويات في القِدر دونما ترتيب. يقشعرّ بدنه وتربكه حركاتها المتهوِّرة. يربكه عبثها وهي تحضِّر «الباستا». لا يمكن أن تُعدّ الباستا بالطريقة هذه، ولكن فتحيَّة تفعلها وبسرعة فائقة.

الرائحة التي تخرج من القِدر، تدفعُ رئيس الطبَّاخين أحيانًا للبكاء. في عمقه الداخلي يدركُ بوضوح، أنّ قدوره لن تتمكَّن يومًا من إخراج تلك الرائحة التي تصطاد المارّة والعابرين من على بُعد أمتار. يبكي رئيس الطبَّاخين ويتمنَّى لحظتها أن يُصبح تلميذًا صغيرًا، لكنّهنّ لا يملكن له شيئًا، فذلك يحصل بالمصادفة، وهذا ما كان يزيد من حسرته. أخبرنه لأكثر من مرّة وهو يتوسَّلُ إليهنّ برغبته في أخذ درس مطبخيّ صغير، «إنّ هذه هي الفرصة السانحة الوحيدة للحكي، ولن نبذِّرها لغير ذلك» لقد جئنَ لحكايات مؤجَّلة. وهذه الليلة الشتويَّة الطويلة والنادرة ستمرّ عقاربها بسرعة.

لا يمكن لأحدنا أن يجد أيّ مبرِّر لوجود هذه السندريلّات العجيبات والمختلفات في الأعمار والقرى التي جئن منها معًا السندريلّات الدائخات بالقصص الطريفة والمزعجة على حدّ سواء.

ولكنَّهنَّ يتشابهن في ليلة كهذه، فبمجرَّد أن تنظر في وجوههنَّ، ستدرك أنَّهنّ بلا هموم، بلا أوجاع. هبطنَ من سلالة الضحك مُبتهجات. يتغامزن ويملكن الكثير من العبث ليفعلنه. لا يمكن أن تكون لتلك الأعين ذاكرة. إنّها حديثة العهد بكلّ شيء، وكأنّها تبصر للمرَّة الأولى. تحتفظُ تلك الأعين بشغف هائل لاقتناص كلّ ما يصادفها. أعين مُتعطّشة، وقلوب تخفق. إنَّها الآن تحديدًا تخفق أكثر من المعتاد، على الرَّغم من أنَّ ذلك يتكرَّر مرّة كلّ شهر، لكن في هذه الليلة، كان ثمَّة اتّفاق واضح ومسبق بين السندريلّات. لن ينفقنَ الوقت في الطهي والرقص والغناء وحسب، ثمَّة تسلية أخَّاذة ومؤجّلة كنّ يمارسنها من قبل، ولكن هذه المرّة يرغبنَ بمنحها كلّ الوقت.

* * *

في هذه اللحظة، كان رئيس الطبَّاخين يخلعُ مئزره، ويخرج من المطبخ. هذه المرّة، لم يكن يرتدي القميص ذا الياقة الطويلة مع ربطة العنق الحمراء والقميص ناصع البياض. إنَّه بقميص أصفر بدون ياقة، يكشف عن عضلِ صدره وذراعيه، وبنطال جينز رماديّ. بدا لهنَّ أطول ممَّا تصوَّرن في مرَّات سابقة، وشعره على غير العادة ليس تحت القلنسوة المطَّاطيَّة، بل مربوط بشريط إلى الخلف، الأمر الذي جعله يبدو أصغر بعشر سنوات. بل إنّ التجاعيد الخفيفة تحت عينيه لم تخفِ الخضرة الفاتنة في مقلتيه، ولحيته العشوائيَّة غير المهذَّبة أضفت بعضًا من الوقار والهيبة لذلك الخروج غير المتوقَّع.

لقد مرّ رئيس الطبَّاخين من بين الناس وما كان بالتأكيد ليلتفت أحد لغيابه الليلة، حتى إنّ المدير ما كان ليستوقفه وهو يضع ورقة استقالته فوق الطاولة. لكنَّ عين ريّا ما كانت أيضًا لتغفل ذلك المشهد غير الطبيعيّ. لقد صرخت، بينما السندريلّات آخذات في الضحك

والكلام المتشابك. «انتبهن. هنالك من يُفسد ليلتنا»، وكان أن صمتت السندريلّات، ليلاحظن ذلك الأمر غير المتوقَّع. قالت ربيعة بغضب: «لا يمكن أن يحدث الليلة شيء كهذا إنَّها ليلتنا وحسب». لم يكن الناس ليظنُّوا مجرَّد الظنّ أنَّ حدثًا صغيرًا كذاك يمكن أن يثير كلّ تلك الجلبة. قالت فتحيَّة: «يا رئيس الطبَّاخين..»، فكان أن توقَّف والتفت ووجهه غامق بالحزن، ثم مشى باتِّجاههنّ، وتوقَّف خارج الهالة العملاقة. قالت نوف: «لم يسبق أن قام أحدهم بشيء كهذا الجميع يعرف قوانين هذه الليلة. يمكنك أن تغادر غدًا أو بعد الغد، وليس بالضرورة الليلة». رفع كتفيه وأنزلهما بقلّة حيلة: «لم أعد أجد سببًا للبقاء». تُبدي عليا بعضًا من التعاطف: «وما الذي يجعلك كذلك؟ انظر إلى الناس من حولك. إنَّهم سعداء في ليلتنا هذه. فهم ينتظرونها بشغف ليغسلوا تعاستهم وانتظاراتهم وقرفهم». تنهض ريّا بفزع: «الآن تذكَّرت. إنّ رئيس الطبَّاخين هذا، هو الشخص الوحيد الذي يبقى حزينًا في ليلتنا. نعم، لا أتذكَّر أنّي رأيت هذا الرجل مبتهجًا في ليلة من ليالينا». قالت تهاني هامسة: «يا إلٰهي. هذا يعني أنّ سحرنا لا يقع عليه!». عادت الجلبة والكلام المتشابك ليسري بين السندريلّات. قالت سارة: «لِمَ لا ندعوه إلى طاولتنا؟». صرخن بها جميعًا وفي وقت متفاوت: «هل جننتِ؟ لم نكن لنسمح بهذا من قبل». في هذه اللحظة، أبدى رئيس الطبَّاخين لهنَّ اللامبالاة، وأدار ظهره مُنسحبًا من المطعم. قالت نوف بقلق لا يليق بتلك الليلة: «إنَّه غير مكترث وحزين، أرجو أن نتحدَّث إليه». هنا صمتن جميعًا إلى أن رفعت ريّا صوتها: «يا رئيس الطبَّاخين. هل لك أن تنضمّ إلينا؟ ثمَّة مقعد فارغ ها هنا». أُصيب رئيس الطبَّاخين بالدهشة، بل إنّه بحث عن كلمة

مناسبة ليقولها، إذ إنَّ ذلك لم يحدث في تاريخ السندريلّات كلّه. حتى إنّ الناس المخدَّرين آنذاك، انتابتهم رعشة المباغتة، وإذ برئيس الطبَّاخين يقول: «وكيف لي أن أخترق الهالة العظيمة هذه؟». ابتسمت ربيعة: «يكفي أن تمشي إليها لتجد نفسك فيها». وقبل أن يمشي رئيس الطبَّاخين، التقط نَفَسًا عميقًا واستعاد لامبالاته، وقال: «إنّ ذلك لن يجعلني أحيد عمّا نويت. ولكنّي لن أخسر شيئًا لو فعلت». فكان أن مشى، ووجد نفسه يسحب كرسيًّا إلى جوار السندريلّات. أصبح مفصولاً عن العالم فجأة، محجوزًا بين روائحهنّ وأجسادهنَّ التي لا يمكن إلَّا أن تتسبّب في افتتانه. قالت ريّا: «إنَّ ذلك بالتأكيد لا يعني بأيّ حال أنَّنا سندريلّات عاديَّات نبحث عن أمير حتى وإن ظهرت لنا وسامتك المفاجئة». يرفع يده لينفي رغبته بذلك: «في الحقيقة أنا لستُ أميرًا ولا ينبغي لي ذلك، أنا طبَّاخ وحسب. وإنّ أكثر ما كان يبثُّ البهجة في نفسي أن أكون طبَّاخًا يعرف أسرار المطابخ وكبار الطبَّاخين، ولكنّي الآن لستُ أكثر من مُحبط». تصرخ سارة: «محبط. هل تمزح؟ لا أحد يحبط في ليلتنا إنَّك تتوهَّم». يضغط على جبهته بإبهامه وسبَّابته: «بل إنّي أُصاب بالإحباط في ليلة كهذه تحديدًا الليلة التي يتجلَّى فيها إخفاقي». تسارع نوف بالقول: «لم أكن لأظنّ أنّ هذه المفردات يمكن أن تستعمل في ليلة كهذه». تقول عليا: «ما رأيكنّ أن نمنحه فرصة لأن يتحدَّث». ولكن تبدو ريّا متجهّمة وهي تقول: «لا نريد أن نفتح بابًا لمثله من المحبطين. أرجو أن يغادرنا وحسب». تمسكُ فتحيَّة بذراعها: «إنَّ خروجه الليلة سيحدث الكثير من البلبلة. غدًا أو بعد غد سيتحدَّث الناس، وهذا ما لم نعتد عليه. ماذا لو تحدَّث يا ريّا؟».

يشعرُ رئيس الطبَّاخين بأنَّ هنالك مشاورات كثيرة تدور بالهمس بعيدًا عنه، إلى أن تفاجئه تهاني: «هيَّا يا رئيس الطبَّاخين، سنعطيك بعضًا من وقتنا، تحدَّث وقل لنا لِمَ أنت محبط؟». شبك رئيس الطبَّاخين أصابعه ببعضها بعضًا، «حسنًا. لم أجهِّز نفسي لأقول شيئًا إنّني محبط بسببكنّ وحسب». صرخن جميعًا في وقت واحد هذه المرّة: «بسببنا!». وتابع قائلاً: «لم أكن أريد في حياتي كلّها سوى أن أكون طبَّاخًا مميَّزًا. منذ طفولتي الأولى، كنتُ أسكن المطبخ. كان مخبر تجاربي الأولى في الحياة. أجرِّب وأجرِّب بشغف لا يمكن لإحداكنّ تصوّره. الكتب الأولى التي اقتنيتها في حياتي كانت في الطبخ، والسفر الأوَّل في حياتي كان للمشاركة في مسابقة للطبخ، والقُبلة الأولى في حياتي كانت جوار المطبخ، عندما طلبتْ منِّي بنت صديقة أمّي أن نأكل قطعة الحلوى التي حضَّرتها لأجلها، فأمسك كلّ منّا بطرف الحلوى، ولم نتوقَّف عن تناولها حتى اشتبكت شفتاي بشفتيها وسالت الكريمة الطريَّة بينهما

وبعد سنوات من الخبرة والدرس والعمل في مطابخ شتَّى من العالم، صرتُ هنا، في مطعم ظلّ الناس يسمُّونه إلى زمن طويل «مطعم الشيف رامون»، وكان ذلك يكفيني ليصبح لحياتي معنى. أتبضَّعُ باكرًا كلّ الأشياء الطازجة، وأشعر بمحبَّة الناس. أنتنَّ سرقتنَّ كلّ شيء منِّي. حتى إنّ المطعم بات اسمه مطعم السندريلّات عوضًا عن الشيف رامون. وفوق هذا وذاك، لم يعد بإمكاني أن أغفر لنفسي. لقد تحطَّمت قاعدتي حول المعايير. كم سيلزمني من الوقت لأصدِّق أنَّ الطبخ خارج المعايير والقياسات! أنا متأكِّد أنّ قصَّة «النَفَس» هي كذبة كبيرة. ولكنِّي بالمقابل أرى الناس تقع في متعة آسرة بسبب روائح أطباقكنّ».

تنطلق ضحكة عالية من فم فتحيَّة: «هل يُعقل أن يكون سبب حزنك بهذه التفاهة؟». يأخذ الشيف رامون نَفَسًا عميقًا «تحسبين هذا تافهًا؟ لقد دفعني الأمر لأن أعقد حقائبي لمغادرة مسقط». أوشك الشيف رامون على أن يقف، فأمسكتْ سارة المجاورة له بيده: «لعلَّك لا تفعل ذلك الليلة». ردّ بحزم: «بل سأفعل في التوّ». تتدخَّل ريّا بوقارها المعتاد: «شيف رامون. أرجوك قل لنا. ما الذي سيثنيك عن هذا القرار؟». سحب رامون يده من يد سارة، وقال: «لا شيء البتَّة. أنا مُنهزم في أعماقي، وعليّ ألّا أكيل عليكنّ التهم». تعاود ريّا سؤاله: «وإن أخبرناك عن سرِّنا هل لك ألَّا تُفسد الليلة بالذهاب؟». تطلَّب الأمر لحظة كبيرة من الصمت. وبدا الناس خارج الهالة وكأنَّ الفضول يختلجُ في أعماقهم أيضًا عاد الشيف رامون ليجلس ويشرب جرعة كبيرة من كوب الماء الذي كان أمامه تمامًا، «على كلّ حال إنّ موعد طائرتي فجر الغد. أظنّ أنّه لديّ متَّسع من الوقت للإصغاء». بدت السندريلّات في غاية التوتُّر، وهنّ لا يكدن يجزمن بما عساها تقول ريّا آنذاك. لكن ريّا لم تنطق بشيء، ظلَّت تفكِّر، في الوقت الذي استعجل الشيف رامون بقوله: «أعرف يا سيِّدتي ما عساك تقولين. الناس أيضًا ردّدوا ذلك كثيرًا، وعلى العموم سأختصر عليك الأمر، أنا لا أصدِّق أصلاً بأمر الجنِّيَّات». هنا تنفجر السندريلّات معًا بالضحك الهستيري. بل إنّ الطاولة قد تحرَّكت قليلاً، ولاحظ الشيف رامون أنّ حركة الملاعق والشوك غير طبيعيَّة. كذّب رامون ما شاهدته عيناه عندما ارتفعت كؤوس الماء لبضع سنتيمرات قليلة على إثر الضحك دون أن تندلق قطرة ماء واحدة منها.

لم يحتمل رامون ضحكهنّ: «ألستنَّ متحوّلات بفعل الجنِّيَّات؟

الجميع يعرف ذلك. حتى وإن كنتُ لا أصدِّق». عادت ربيعة لتقول: «يبدو أنّ هنالك سرًّا لا يعرفه أحد. يا الله كم ستكون محظوظًا لو كنت أوّل من يعرف». يأخذ الشيف رامون نَفَسًا عميقًا: «أجدني مجدَّدًا فضوليًّا لكي أعرف. فقط أتمنَّى أنَّكنّ لا تماطلن بالخدع ريثما تدقّ الساعة الثانية عشرة». تقول تهاني: «سيِّد رامون إنّك رجل مستفزّ بحقّ، لم ينل أحد قبلك هذا الشرف، أنت لا تؤمن بالجنِّيَّات، ولذا فأنت لا تتمكَّن من الابتهاج في ليالينا. بات الأمر جليًّا الآن. لو أنَّك تستسلم لهذا الإيمان لكنت ولجت إلى سعادة لا يمكن لعقل أن يتصوَّرها». وتتابع ريّا قائلة: «إنَّ أقصى ما يمكن أن تفعله الجنِّيَّات هو الخدع. الخدع قصيرة الأمد وحسب. أمَّا الأشياء الأخرى فهي تتعلَّق بحقيقتنا نحن. لا يمكن أن تنكر حقيقتنا». يبدو الشيف رامون متوتِّرًا في هذه اللحظة بعض الشيء: «حقيقتكنّ! إنّني أكاد لا أصدِّق بوجودكنّ حتى». تعلِّقُ عليا: «يبدو أنَّك لا تصدِّق ما تراه عيناك ولا ما يقوله قلبك أيضًا!» فيتدارك الشيف رامون الأمر بقوله: «سأقول لكنَّ سرًّا لم أقله من قبل أيضًا. لم يكن من السهل عليّ أن أبقى طويلاً بحسرتي. لقد ذهبتُ إلى منازلكنّ عدّة مرّاتٍ لأكشف السرّ وحدي، ولكنْ ما كان يُصعِّبُ عليّ الموضوع أنَّكنّ في البيوت لستنَّ سندريلّات ببساطة. عاديَّات جدًّا ربَّما، وأقلّ بهجة وأكثر ولعًا بتفاصيل الحياة العابرة. تتأفَّفنَ بسرعة، وتضجرنَ من أبسط تفصيل يسعى لتدمير جداول أعمالكنّ الشاقَّة. إنَّكنّ مُرتبكات، وبعضكنّ مكتئب على الدوام. تعملنَ كثيرًا وتتوتَّرنَ بسرعة، ويمكن لأيّ شيء. أيّ شيء وبدرجات متفاوتة أن يُعكِّر أمزجتكنّ. لستُ مستعدًّا لتلقِّي تلك النظرة. تلك النظرة الجارحة والقاتلة والتي قد تعني: «ومن أنت لكي تطاردنا؟

لستَ أميرًا، وليس بحوزتك فردة الحذاء الأخرى التي نتعمَّد أن نخلعها في أماكن شتّى من مسقط قبل لحظة الهروب الكبيرة تلك». أعرف جيِّدًا، فقط في هذه المواعيد، وفي هذا المطعم الماكث في شارع الحُبْ والمطلّ على بحر عُمان، في هذا الوقت المستقطع من الحياة، تصبحُ إمكانيَّة النظر إليكنّ بهذا الوهج مُمكنة. لقد كدتُ في لحظة ضعف أن أصدِّق بوجود الجنِّيَّات. وبقيتُ أتحسَّر وحيدًا لعدَّة ليالٍ، ولم أكتشف السرّ. الأمر كان يتطلَّب الكثير من الجسارة، الكثير من الدربة والتأنِّي وقياس حساسيَّة الكلام. قضيتنّ على كُثرٍ قبلي، لأنَّهم حاولوا مجرَّد الاقتراب، لكن أحدهم لم يتمكَّن من غزو هذا العازل من قبل، ولذا بالتأكيد عليّ توقُّع الصدّ والغضب الليلة، وأودّ أن أنبِّه لمدى الأنانيَّة التي تتحلَّين بها أنتنّ تُقلِّصن الناس في دور صغير، أعني تحديدًا دور الانبهار بكنّ وحسب.

يصمتُ الشيف رامون قليلاً ثم يُضيف: «أجدني الآن متورِّطًا بالفضول، ولا أملك شيئًا إزاء ذلك. بدقَّة أكثر إنَّه الشغف. الشغف بكنّ. لا يمكنني أن أكون مُتفرِّجًا بعد الآن». فكان أن بادرته ريّا: «أوجاعنا بالغة الدقَّة، وأحيانًا لا نجد الكلمات الملائمة لنقولها. إنّها بالنسبة لهم ـ الناس والجيران والأزواج ـ أوجاع لا تُرى لا تُحسّ». يهزّ رامون رأسه: «لم أفهم بعد مقصد كلامكِ». تأخذ ريّا نَفَسًا عميقًا ثم تضيف: «الحكي يا عزيزي رامون. الحكي وحده يستطيع تحويل تلك الأوجاع الصغيرة لشيء بالغ الإيضاح»، وتتابع نوف: «على مدى سنوات طويلة، دأبنا على الحكي، كي لا تأتي الأسرار اللعينة إلى لحظات خلوتنا فتفتك بنا، إنَّنا نتماسك معًا بالحكي، والجنِّيَّات ينتشين بالاستماع إليها. لم يعد لديهنَّ ما يفعلنه الآن سوى الإصغاء لنا».

وتجذب تهاني انتباهه بقولها: «هل تعي ذلك الآن شيف رامون؟ الحكي وحسب هو الذي يجعلنا جميلات ومُدهشات، ويجعل لأطباقنا رائحة ومعنًى. بعيدًا عن معايير القياسات التي تعرف».

لم يتمكَّن الشيف رامون من قبض دموعه الغزيرة. كان يبدو كالأطفال. في هذه اللحظة، قلتُ له أنا أيضًا: «شيف رامون. الأسرار التي لا نقولها جيِّدًا تأتي ونحن مغمَّضو الأعين تحت انسياب الشامبو، أو تهجم علينا كوحوش في تلك اللحظة التي يُعطي الأزواج لنا فيها ظهورهم وينامون غير مكترثين بنا وبأرقنا، ولذا فنحن نحكي، لنعود إلى بيوتنا خفيفات جدًّا. نصبح آنذاك كالريش، حالمات وسعيدات. هل لك أن تصدِّق ذلك؟».

وهنا تطلب ريّا بوقار من الشيف رامون أن يُغادر الطاولة، لأنَّهنّ وعلى غير المعتاد تأخَّرن كثيرًا في حكي الحكايات.

يقبض رامون على أياديهنَّ وهنَّ يسحبنها من تحت يديه مُندهشات، «هل يمكنني لليلة واحدة وحسب أن أستمع لحكاياتكنّ؟ أرجو أن يحدث ذلك. إنّها ليلتي الأخيرة في مسقط. لا شيء سيضيركنّ. سأحتفظ بحكاياتكنّ كآخر ذكرى مسقطيَّة في روحي».

يسكتنَ جميعًا لقد انسحبن لذهولهنّ للحظة، وكما يبدو الآن فهنّ يفكِّرن. يبدو التعاطف واضحًا في وجوه البعض والصرامة في الوجوه الأخرى، وبينهما وجوه حائرة. هنالك ما يستحقّ عناء التفكير. إنّ كلّ واحدة منهنّ تنتظر من الأخرى أن تُعلِّق بقول شيء ما. أن يقلنَ شيئًا، شيئًا يؤيِّدنه أو ينفينه. لكن لا أحد يتكلَّم. إنَّهنَّ يفكِّرن وحسب.

يبدو صوت فتحيَّة فاترًا بعض الشيء ومنهزمًا عمّا كان عليه قبل

قليل وهي تقول: «ماذا لو تحدَّثنا. ماذا لو أفشت كلّ واحدة منّا بسرٍّ من أسرارها كما هي عادتنا». وأضافت سارة بحماس: «ليس في صالحنا أن يغادر الشيف رامون الآن على كلّ حال». نظر الجميع إلى ريّا التي بادرت بالقول: «الزمن هنا غير الزمن يا رامون. الزمن هنا يشبه زمن الحلم. يمكن أن يحصل الكثير، الكثير جدًّا في ثوانٍ قليلة، شريطة ألَّا نستيقظ جميعًا. ستعرف الكثير عنّا، ليس لأنَّك أمير. هل تعي ذلك جيِّدًا؟». هزّ رأسه بفرح كنس كلّ غمّه الصباحي وتسارعت دقَّات قلبه وكأنّه على موعد غرامي، فهو لم يشعر بشيء مماثل منذ أن قضمت حبيبته الأولى كعكة الشوكولاتة التي حضّرها لأجلها، وعوض أن تقول له رأيها في الطعم، قبَّلته في فمه طويلاً، فلطَّخته بالشوكولاتة، وعندما انتبها للأمر أخذا في الضحك، وهي تلعق بسبّابتها الفُتات القليل على طرفي فمه.

تنفرج أسارير السندريلّات. يستعدنَ البهجة. تبتعد غمامة الحزن والكآبة عن الوجوه. إنَّهنّ جميلات، والناس خارج الطاولة السحريَّة عادوا ليكملوا مراقبتهم الشهيَّة. لا شيء سيوقف انهمار التفاصيل. ستتداعى الحكايات كحبّات البلُّور، ستتجاذب مع بعضها بعضًا، وستنفرط. ومن المؤكَّد أنّهنَّ سيبكين ويضحكنَ. ولا بأس بكلِّ هذا ما دمن سيَعُدن خفيفات كالريش.

الأمر يتعلّق بالبطّة السوداء. تلك التي لم تفعل شيئًا ذا قيمة لكي تصبح جميلة في أعين أقرانها كانت تنتظر وحسب، وعندما تغيَّرت وأصبحت جميلة حقًّا لم يكن لها أن تبتهج أيضًا، لأنَّها ببساطة لم تتمكَّن من تمزيق أغلفة كلّ الكتب التي أُعيد طبعها لمرَّات ومرَّات. تلك الأغلفة التي لا تصوِّرها إلَّا في لحظة القبح المقيتة تلك.

فتحيَّة

على مدخل الصالون

أقفُ على أمشاط قدميّ. أضمُّ يديّ خلف ظهري. آخذُ نَفَسًا عميقًا. أشفطُ معدتي إلى الداخل، حتى لا تظهرُ تكسُّرات الفستان فوق الكرش البارز. أحافظُ جاهدة على اتِّزاني ريثما يصلني صوت وضوء الفلاش المنطلق من كاميرا الهندي في استديو التصوير. أرخي قدميّ، أُخرجُ الهواء المحبوس في صدري، فينفلتُ كرشي ليتمدَّد مجدَّدًا في الحيِّز الفارغ من فستان العيد. يطلبُ والدي من الهندي أن يُكرِّر الأمر، لنحصل على خيارات أكثر من الصور.

أكرِّر الأمر من دون أن ينتبه أحد لي، فما إن يصلُ الهندي إلى الرقم ثلاثة، حتى أرفعُ جسدي مجدَّدًا على أمشاط الأصابع، وأحزم يديّ خلف ظهري، وأشفط معدتي إلى الداخل، فتبدو ابتسامتي متشنِّجة بعض الشيء.

تغدو تلك الثواني هي الأطول في حياتي كلّها. أحاول جاهدة التفكير في شيء، أيّ شيء يزيحُ عنّي عبء الوقوف وشفط الكرش.

وفي كلّ مرّة وبين الرقم ثلاثة وضوء الفلاش، تقفزُ إلى ذهني صورة البطَّة القبيحة التي شاهدتها في المسلسل الكرتوني. أحاولُ جاهدة أن أجعل ضحكتي طبيعيَّة، لكنَّ النَفَس العميق الذي أخذته وكتمته بدأ يُوتِّرني كثيرًا، والهندي لم يقل بعد رقم ثلاثة.

البطَّة لم تفعل الشيء الكثير لكي تتغيَّر. كلّ ما فعلته هو الانتظار. الزمن كان كفيلاً بتغيّرها ولذا لم أفعل أنا أيضًا الكثير حِيال قِصري وسُمرتي وبدانتي وضخامة أصابع يديّ، لكنِّي أيضًا لم أكن لأجازف يومًا بالتقاط صورة دونما الالتزام بالأشياء الثلاثة التي أكرِّرها دائمًا أمام رهبة العدسة.

يتبادلون الصور. يُمرِّرونها بينهم ما إن تصل من الاستديو، ولا يُعلِّقون عليها يُمكنك أن تسمع تنهيدة هنا وفمًا مفتوحًا بدهشة هناك، لا أكثر. والدي يختارُ الصورة الأفضل كعادته من بين الثلاث أو الأربع. تلك التي جزمت أغلب آراء العائلة على أنّها الأفضل ليُعلِّقها على مدخل الصالون.

«الآن يُمكن لكلِّ الزوَّار والأهل أن يكتشفوا الفرق»، هذا ما كنتُ أقوله لنفسي، ولا يقوله أحد غيري. ورغم أنّ الصورة على مدخل الصالون تأخذ بضع ثوان من وقت الضيوف لتأمُّلها، إلَّا أنَّهم غالبًا لا يقولون شيئًا عنها أكثر ما قد يحدث هو أن يبتسموا قليلاً أو يقولوا: «أوووه»، ولا يتلو ذلك تعبير آخر.

التصوير تقليد سنوي بعد عيد الفطر بأيَّام. نلبسُ أحدثَ ملابسنا ونتزيَّن جميعًا، ونذهب إلى محلِّ التصوير. نقفُ في أبهى حلَّتنا ونبتسمُ عند الرقم ثلاثة. ننتظر ليومين أو ثلاثة ريثما تأتي الصور. والدي

حريص على التقاط ثلاث أو أربع منها، ليختار أفضلها على الإطلاق. يزيحُ صورة العام الماضي بعناية، يلفّها بحرص شديد بالجرائد، ومن ثم يضعها في كرتون خصَّصه لصور السنوات الماضية، ويحفظ هذا الصندوق ككنز ثمين في المخزن. تنتصبُ الصورة الأفضل كما يظنّ أغلبنا على مدخل الصالون. تثير انتباهنا أوَّل يومين أو ثلاثة، ومن ثم ننسى أمرها أو نعتادُ عليها.

من عام لآخر يتغيَّر لون ملابسنا في الصور، تسريحة شعرنا أيضًا، ولون مقابض الشعر التي تُلائم لون الفساتين الطويلة. بينما الشيء الذي لا يتغيَّر أبدًا هو الأماكن التي نحرصُ على الوقوف فيها كلّ واحد منّا يعرف المكان الذي يخصُّه والزاوية التي عليه أن ينظر منها إلى الكاميرا.

تظهرُ من أقصى اليمين نعيمة واقفة على هزالها وجسدها الدقيق، فيما وجهها المشرق ينمُّ عن جدِّيَّة مُفرطة. أصابع يدها اليمنى الناعمة تظهر من خلف كتف غنيمة. غنيمة مُحمرّة الوجنتين ويداها تطبقان على ضحكة، وفي عينيها صخب هائل وشقاوة. حمدة بأعوامها الثلاثة تجلسُ في حجر أمّي، أمّي جالسة على الكرسيّ وسطنا حمدة تضحك في الصورة، لأنّ الرقم ثلاثة الذي يقوله الهندي مُتجاهلاً نقاط حرف الثاء يعني بالضرورة أن تُطلق ضحكة. أمّي متورِّدة يميلُ رأسها بخجل ناحية العدسة، ومن تحت عباءتها الفضفاضة المشقوقة من الأمام، ينكشفُ زيّها الملوَّن بالأحمر والذي يصلُ إلى ركبتيها. أسفل الزيّ، يظهر سروالها الأزرق والعامر بالنقوش الدقيقة، يظهرُ جليًّا، رغم التفاف ساقها اليُسرى على اليمنى.

جسد أمّي الرشيق لم يشحنه الحمل المُتكرِّر لأربع مرَّات بالشحوم. الضحكة في عينيها اللوزيَّتين سحرت بها كُثرًا ممَّن جاؤوا لخطبتها، ففاز بقلبها جنديٌّ مُحبّ. الجنديّ المُحبّ هو أبي الذي يقفُ إلى جوارها من جهة اليمين، وجهه يبثُّ الصرامة والحزم، لكنَّ يده اليسرى التي تطوّق كتفيْ أمّي تقول شيئًا آخر. هناك في أقصى اليسار وقفتُ أنا على أمشاط قدميّ، وابتسامة مُرتبكة تعلو وجهي.

كنتُ في العاشرة عندما وضعت أمّي البودرة البيضاء والمُعطَّرة على جسد حمدة، فشكَّلت البودرة طبقة تُعطي خدعة مراوغة. وكمن كشف عن سحر، خرجتُ إلى صديقاتي وقلتُ: «هل تردن التأكُّد من لوني؟ يُمكن أن يتغيَّر». الصديقات المُتّكئات على أغصان المانجو، والمنشغلات بحفر القلوب والحروف الأولى لِصِبْيَة الحارة، قُلن: «نعم نريد». كنتُ قد سرقتُ علبة البودرة المُعطَّرة الخاصَّة بحمدة. دخلتُ إلى غرفة الدينمو ـ المُحرِّك الكهربائيّ الذي بضغطة زرّ صغيرة، ينتشل الماء من قلب البئر، فينسكب الماء إلى الحوض، ومنه إلى أفاعي الأفلاج العديدة في قلب المزرعة الشاسعة ـ كانت الغرفة مُعتمة، ولم أتبيَّن زرّ تشغيل الضوء، ولم أكن قادرة على أن أتبيَّن نفسي وليس بحوزتي مرآة. سكبتُ أكبر قدر ممكن من البودرة. مرَّرتها على وجهي ويديّ وعنقي وما وصلت إليه يديّ من مناطق بارزة من أعلى صدري. ثم خرجتُ فاردة يديّ كما يفعل ساحر مُحترف. أغمضتُ عينيّ وقلبي يخفق. انتظرتُ قليلاً قبل أن تصفعني بنتُ الجيران الغارقة في الضحك بقولها: «مُهرِّجة».

نقعتُ نفسي في الحوض واغتسلتُ بماء البئر، بعد أن تعرَّفتُ على الزرّ المناسب لتشغيل «الدينمو».

غصتُ بثيابي. انقشعتْ طبقات البودرة تحت شلّال الماء المُتدفّق، وكلّما اختلط دمعي بالماء، أدركتُ تلك السخونة التي تغلي في قلبي.

قرأتُ قصّة «البطّة القبيحة» أكثر من عشر مرّات في مكتبة المدرسة، ولم أجد جديدًا، أكثر ممّا شاهدته في الحلقة الكرتونيّة. البطّة لم تفعل شيئًا حيال اللون والبشاعة سوى الانتظار. وأضفتُ إلى شرط الانتظار، الإيمان بأنَّ ذلك سيحدث يومًا ما، بطريقة أو بأخرى. سيحدث حتمًا

صحوتُ من نومي ذات نهار، ولاحظتُ شيئًا غريبًا. شيئًا ما بدا كبارقة أمل أولى لبطّة تنتظر. بدا جسدي المترهّل في سمنته يضيقُ قليلاً يضيقُ بدرجة لم يكن ليحسّها سواي. بعد أشهر قليلة، بات الأمر محسوسًا من الآخرين. بدأت وجنتاي الصاعدتان في امتلائهما والمتسبّبتان في إخفاء شكل عينيّ بالتنازل قليلاً عن عرشهما حدث الأمر بسرعة، ثم تتابعت التغيّرات يومًا بعد يوم، أسبوعًا بعد آخر، وشهرًا بعد شهر، بطريقة غير متوقّعة، حتى ظنّ الأهلُ أنّي مُصابة بمرض مُريع. ولم يجد والدي بدًّا من أخذي إلى الطبيب. قال الطبيب: «إنَّها تغيّرات طبيعيّة».

خسرتُ وزني بسرعة مُدهشة. بل اكتشفت أنّ لي عينين كعينيْ أمّي اللوزيَّتين بعد أن عادت وجنتاي إلى المستوى الطبيعيّ، وخفتت سُمرتي قليلاً

ثمّة فارق كبير بين قصّة فانتازيّة وبين الواقع، لذا كان يلزمني كبطّة الكثير من الجهد، لأحافظ على تحوُّلي، كأن أعتني بهندامي

قليلاً، وكأن أضع سرًّا بعض المساحيق، على ألَّا ينتبه أحدٌ إلى أنّي أفعل ذلك، فقط إلى درجة تُشعر الآخرين بضرورة أن يفكِّروا بينهم وبين أنفسهم: «يا الله. ما الذي تغيَّر في هذه البنت!» وليس بالضرورة أن يكون الفرق خُرافيًّا.

حمد ابن الجيران أحبَّني. أحبّ البطَّة السوداء قبل أن تتحوَّل. ولكنَّ ذلك لم يمنعه من مواصلة الحبّ، ومن تصيّد الالتقاء بي قرب الدكَّان، وفي ردهة انتظار باص المدرسة. ولم أكن أنا منتبهة إليه أو بالأصحّ غير راغبة بالانتباه. كان بدينًا بعض الشيء وله ابتسامة تشي بشيء من البلاهة. ولكن ما إن عاد حمد من تدريب امتدَّ لثلاثة أشهر في العسكريَّة، بعد قبوله في الجيش بشهادة الثانويَّة، وبواسطة مضمونة من خاله، حتى ذابت الشحوم الزائدة وكأنَّها لم تكن. أُصيب هو الآخر بالتحوُّل، وعاد من التدريب أكثر رشاقة ممَّا كان، إلَّا أنَّ ابتسامته البلهاء بقيت على حالها.

في أوَّل أسبوع عاد فيه حمد، دخل بيتنا مع أهله خاطبًا. ابتسمتْ أمّي وتهامست سرًّا مع أبي في المطبخ. كنتُ أقرأ سعادتهم وغبطتهم الهائلة لعريس أبسط ما يمكن أن يُقال عنه إنّه عادي جدًّا أزعجتني مُباركة أختي غنيمة التي تصغرني بعامين، كان يبدو وكأنَّها تريد أن تقول: «من يدري قد لا يأتي غيره!». كانت نظراتهم تحرِّضني على ضرورة أن أغتنم هذه الفرصة والتي من المحتمل ألَّا تتكرَّر. كانوا غير مُصدِّقين أن يطرق بابهم عريس، وأن أكون أنا البنتُ الكبرى أوَّل عروسة. ربَّما ظنُّوا بأنَّ بختي سيتأجَّل كثيرًا، أو يُعرقل نصيبي النائم بخت أخواتي الثلاث الجميلات من بعدي. لكنَّ حمد كسر توقُّعاتهم وجاء خاطبًا لبطَّتهم السوداء.

الحقيقة، لم يضطرّني أحد لأن أوافق. لم يُلحّوا عليّ. لم يُنفقوا وقتهم في محاولة إقناعي. كانوا ينتظرون ردًا وحسب. يترقّبون أن أقول شيئًا. لم يحدث أن كرَّر أبي سُؤالي بعد المرّة الأولى. وفي ساعات المطبخ الطويلة مع أمّي، لم تسألني إن كنتُ قد حسمت الأمر. ولم تجرؤ غنيمة على أن تخترق لحظة مشاهدة أفلام الأبيض والأسود أو لحظة تعليق الغسيل على الحبال فوق السطح، ولا حتى لحظة تناول الشاي والبسكويت بالقرب من شجر السفرجل والفرصاد في حوش البيت. لم يكن هنالك أحد يردِّد اسم حمد، أو يتحدَّث عن مشروع زواج قادم أو فستان أبيض. تجاهلوا الأمر، وكأنَّه من أحلام يقظتي لا أكثر، حتى الجارات اللواتي يدسُسن أنوفهنّ في كلّ شيء، امتنعن عن سؤالي، وإن كانت أعينهنّ تقول شيئًا إلَّا أنّ أفواههنّ بقيت مُغلقة.

فقط حمد من كان يؤكِّد لي أنَّ الأمر حقيقة وأنّه عاشق متعب، وكانت رسائله تصلني مع عصفورة الحبّ الصغيرة، وعلى الرَّغم من حرارة الكلمات والتهابها وصدقها، إلَّا أنّها لم تكن تحرِّكُ في قلبي شيئًا تشعرني بأنّ أشواطًا ضوئيَّة من الركض تفصلني عن الوصول إلى ارتعاشة واحدة أمام كلماته.

كنتُ متأكِّدة من أنّ موافقتي ستُحدث فرقًا كبيرًا في توقُّعات العائلة. موافقتي ستجلبُ البهجة للبيت، ولذا لم أتأخَّر كثيرًا، قلتُ لهم في اليوم التاسع «أنا موافقة». ومكثتُ أترقَّب ردَّة فعلهم، ماذا عساهم يقولون الآن، أيّ فرح سيملأ أعينهم في لحظة التخلُّص المنتظرة هذه!

قال أبي: «يمكنكِ أن تأخذي وقتكِ يا فتحيَّة». قالت أمّي: «يبدو مُبهجًا أن تكون إحدانا أمًّا لعروس حقًّا». فيما بقيت وجوه أخواتي على الحياد، رغم أنهنّ انحنين لتقبيلي.

حمد شاعر لم يُفصح عن موهبته الدفينة إلَّا لأجلي. كتب لي شعرًا لم تسمعه بنتٌ في الحارة، ولا حتى الجميلات منهنّ. قرأتُ ذات مرَّة وأمام مجموعة من الصديقات رسالة حميميَّة، كان حمد قد أرسلها لي، مشاعر مُلتهبة، فتحوَّلت الكلمات الساخنة إلى نُكتة تبعها مهرجان من الضحك.

تأجَّل العرس لأربعة أشهر وعشرة أيَّام بسبب موت والدي المفاجئ بالسكتة الدماغيَّة. انتظر العرس خروج أمّي من عدَّتها قلتُ في نفسي: «تلك علامة النحس الأولى».

كانت الإغاظة مُستمرَّة وتحدث بصمت، لكيلا يخدش أيّ طرف من الأطراف الزجاج الشفَّاف للعلاقة. فأنا لا أدَّخر جهدًا لأفعل أيّ شيء إزاء جسدي، لأنّه لا يمكن لبطَّة ناضجة الآن أن تستردّ ما فاتها من عُمر بدون كلمة إطراء واحدة، ولو على سبيل الدعابة، كانت أمّي طيِّبة ورقيقة والجارات يُحببنها كثيرًا، ولكنَّها لم تكن تقول لي شيئًا من قبيل: «يااااه. كم أنتِ جميلة يا فتحيَّة»، لم أسمع أيّ مُرادف لهذه الكلمة طوال حياتي. حسنًا، ولمزيد من الدقَّة، لم تكن أمّي تقول ذلك لغنيمة ولا لنعيمة ولا حتى للمدلَّلة حمدة. ولكنَّهنّ لم يكنّ بحاجة إلى الإطراء، كُنّ جميلات حقًّا، لذا لا معنى لأن تقول لهنّ أمّي شيئًا أو لا تقول. لن يؤثّر ذلك كثيرًا عليهنّ. والدي كان يشعر بالزهو بي، كنتُ ابنته الكبرى ويده اليمين، ولكنَّه ظلّ يُعاملني وكأنّي صبيّ البيت

الذي لم ينجبه. كان لطيفًا جدًّا، ويعتمد عليّ في سقي الأشجار وجزّ الحشائش الزائدة، وإطعام الماشية إلى أن اخشوشنت يداي. لم يكن يطلبُ ذلك من غنيمة ولا من نعيمة، حسنًا كان يفعل ذلك أحيانًا فتبدآن بالتذمُّر، والتهرُّب. ولكنِّي لم أكن أتذمَّر. كنتُ أريد أن أسمع كلامًا لا يقوله أبي لي. الحقيقة، كان يقول ما لا أريد أن أسمعه، بعد أن أنجز مهامي بنجاح: «إنتِ رجل البيت من بعدي»، لكنِّي لم أكن لأجرؤ على تعليم والديّ ما أريد أن أسمعه منهما

تبدَّلتْ أشياء كثيرة في البطَّة القبيحة، فلم أعد بحاجة لأمشاط قدميّ، وثمَّة كعب عالٍ يرفعني، ولم أعد بحاجة إلى أن أشفط بطني إلى الداخل، بعد أن فعل طبيب لبنانيّ شاطر ذلك نيابة عنِّي، ولم أعد أخجل من سُمرتي، فهنالك العديد من الجلسات التجميليَّة الأسبوعيَّة، جعلت من لوني بديعًا ومُواكبًا للموضة. لكنَّ ظمأ البطَّة كان أكثر ممَّا توقَّعتُ، كانت البطَّة تلهثُ وراء كلّ شيء، تلهثُ بجنون فيّ، وكان حمد سخيًّا معي، مغشيًّا على قلبه.

في الزيارة الأولى بعد العرس، طلبتُ من أمّي أمرًا أزعج أخواتي. قلتُ: «أتمنَّى إخفاء الصورة الموجودة على مدخل الصالون». انزعجت الأخوات كثيرًا كانت تلك الصورة الأخيرة مع الوالد قبل وفاته. اقترحتُ التقاط صورة أخرى، فازداد غضبهنّ. قلتُ مُستدركة: «يمكننا إضافة صورة أبينا. هنالك تقدُّم كبير في التقنيَّات الآن». ظلّ الغضب واقفًا على الوجوه، فأدركتُ أنَّ تلك الصورة ستظلّ على مدخل الصالون لتوجعني إلى الأبد.

مزَّقتُ صور ألبومات المدرسة والصور المشتركة مع بنات

الجيران، ولكنَّ ذلك لم يُطفئ تلك الرغبة. الصورة المُعلَّقة على مدخل الصالون ظلَّت تتعبني ككابوس مزعج وتنغز قلبي كلَّما استرجعتها في ذاكرتي.

لا يمكن لأحد أن يصدِّق الآن أنَّني والفتاة الماكثة في الصورة المعلَّقة في الصالون الكائن نفسه. أشتري الكثير من الحاجيَّات. أتأنَّق بشكل مُفرط. أفعل كلّ ما أشاهده وأقرأ عنه في الموضة. لكنَّ ذلك لم يكن لينتزع الصورة المعلَّقة على الجدار. أخواتي الثلاث الجميلات كبرن بسرعة بينما أنا كنتُ أصغر كلّ يوم. أخواتي أصبحن عاديّات جدًّا بشعر زائد على الوجه، بحواجب غير منتوفة وبشعر معقوص، وعباءات سود بلا زينة. بينما أتوهَّجُ بالألوان، بخصلة شعر باتت شقراء تسقط على جبهتي، بزينة كاملة على وجهي. بأسنان مُلمَّعة وأظافر مصقولة. ولا أنسى حقائبي الباهظة وساعاتي. يُحبّني حمد وأحبّ نقوده أكثر. ورغم وظيفته الصغيرة إلَّا أنّ مشاريع والده تدرُّ عليه أرباحًا هائلة تكفي لجنون ظمئي.

في الحفلات، أتعمَّدُ أن يفوق جمالي جمال صاحبة الحفل، فأسمعُ كلامًا من قبيل: «يا لثوبكِ الجميل!» أو شيئًا من قبيل: «تعجبني هذه الحُمرة. أيّ ماركة تستعملين؟». وعلى سبيل المبالغة، ستستدرك إحداهنّ لتقول: «كم تغيَّرتِ». ولكنْ في حقيقة الأمر، لم يكن هنالك أحد يستطيع أن يراني. كانت الصورة المُعلَّقة على مدخل الصالون تستحوذُ على كلّ تصوُّراتهم عنِّي. كما هو حالِ البطَّة، فالبطَّة المرسومة على الغلاف هي البطَّة البشعة وليست البطَّة الجميلة، ولذا ستعلقُ صورة بشاعتها في أذهان الأطفال أكثر من صورتها بعد التحوُّل.

الشخص الوحيد الذي كان قادرًا على تفنيد تغيّري هو حمد، وهو في حقيقة الأمر من كان معنيًّا برشقي بالإطراء في لحظاتنا الأكثر حميميَّة. لكن لم يكن ذلك ذا وقع مهمّ في نفسي. ينتابني جوع لسماع ذلك من أشخاص شاهدوا صوري القديمة على وجه الخصوص، ولكنَّهم لم يكونوا يفعلون.

في البداية، ظننتُ أنّه من السهل لأحدنا أن ينسف الانطباعات الأولى عنه، ولكن بدا الأمر بغاية الإزعاج والتعقيد بمرور الوقت. لأنَّ أحدًا لا يريد أن ينسى البنت الأولى السمينة والبشعة. فكَّرتُ طويلاً: «فقط عندما تُمحى الصورة من ذاكرتهم، سيتمكَّنون من رؤيتي».

أمشي لأكثر من ساعة فوق جهاز المشي في النادي الذي أجدِّد اشتراكي فيه منذ عدّة سنوات، أمشي ولا أستطيع أن أفكِّر سوى بالصورة المُعلَّقة على مدخل الصالون. أشعرُ أنّ العالم كلّه يمكن أن يتغيَّر فقط لو تمكَّنتُ من إزاحة الصورة. سيتمكّن الناس من نسيان فتحيَّة الصغيرة، ومن ثم سيدركون البطَّة الجديدة. أمشي وأفكِّر في الارتباط العاطفي الذي يجمع أمّي بالصورة، كونها آخر صورة التقطتها العائلة مع الوالد، وقد وضعها بيده على مدخل الصالون. ومن ثم مات، ليحبسني معه إلى الأبد في الإطار ذاته. تزعجني الفكرة، ولكنْ لا يمكن لأحد أن يتصوَّر قدر عذابي اليومي. لقد صنعتُ صديقات جديدات وذهبتُ إلى أماكن جديدة، ولكنْ كلّ ذلك لم يكن ليفعل شيئًا، أكثر من مُضاعفة الكراهية للصورة.

ذهبتُ إلى بيت والدتي باكرًا جدًّا. كانت غنيمة قد تزوَّجت، بينما نعيمة في الجامعة وحمدة في المدرسة. تقصَّدتُ أن أختار هذا الوقت

على وجه الخصوص، حيث لا أحد سوى أمّي في البيت. كنتُ مُرتبكة ولديّ الكثير من الكلام الذي أودُّ قوله، مُصرَّة حتى لو اضطرّني الأمر لأن أكسر الصورة المُعلَّقة بيديّ. أمّي هادئة كعادتها. أعدّت لنا القهوة وجلسنا معًا والصورة في مقابلنا تمامًا. حاولتُ جاهدة ترتيب سيل الكلام والغضب الجارف، ولكنْ شعرتُ بحشرجة في حلقي، وأنّ صوتي سيكون أقرب إلى البكاء لو تكلَّمتُ الآن، أردتُ أن أكون أكثر جدِّيَّة وأنا أطلبُ من أمّي أن تزيح اللوحة. في هذه اللحظات، كانت أمّي تسكب القهوة وتضع صحنًا من الفاكهة والتمر أمامي. نظرتُ إلى البطَّة البشعة في الصورة، فتأجَّج الغضب بداخلي. فكَّرتُ أنّ تناول القهوة ربَّما يُساعدني على ترتيب أفكاري. في تلك اللحظة، كانت أمّي هي الأخرى تريد أن تقول شيئًا كان وجهها على غير العادة مُشرقًا وغير متشنِّج، يبدو أنّها أوقفتْ تناول الحبوب المُنوِّمة التي استهلكتها لوقت طويل بعد وفاة أبي. تأمَّلتُ عينيْ أمّي اللوزيَّتين، كانتا أكثر احمرارًا من المعتاد، لكنَّ شعرها الملفوف ككعكة أعلى كتفيها، جعلها تبدو جميلة، رغم أنّها لا تضع شيئًا على وجهها، ولا حتى الكحل الذي كان يحبّه الجندي.

«يبدو أنّ والدك كان يشعر بأنّ عمره قصير جدًّا»، هذا ما قالته أمّي وهي تفتح حوارها معي، وتابعت: «بالمناسبة والدكِ هو الرجل الوحيد الذي كان يداوم على تصوير عائلته في القرية»، تفلتُ منها ضحكة: «تصوَّري. كلّ الجارات والصديقات وحتى الأهل، كانوا يتأملَّون الصور ولا يقولون شيئًا البتَّة، إنّهم يتمنُّون لو كان لديهم شيء خاصّ وحميميّ كهذا، ولكنَّهم لا يجهرون بتلك الرغبة، كنتُ أقرأ ذلك في أعينهم بشراهة، حتى وهم يغضُّون البصر عن تأمُّل صورنا»،

تنفعل قليلاً على غير العادة وترفع يديها: «كانوا يحدِّثون أنفسهم: ماذا لو كان لدينا شيء خاصّ كهذا». من النادر أن تفتح أمّي قلبها وأن تقول أحاديث من هذا النوع، لطالما كانت تحتشم بالصمت والتقدير الشديد والمبالغ فيه لجيرانها ولكنْ كلّ هذا ينبغي ألّا يجعلني أحيد عمّا جئتُ لأجله. لأنَّ كوابيسي لن تنتهي أبدًا. رشفة أخرى من القهوة وسأشعر أنّي قادرة على قول ما جئتُ لقوله. لكنَّ أمّي ما تزال غارقة في تفاصيل الصورة: «أكاد أظنّ أنّه كان يلتقط الصور لشيء ما. ألا تظنِّين ذلك؟». شعرتُ بالمباغتة وطار الكلام الذي كنتُ أحاول ترتيبه مرارًا في رأسي، رفعتْ أمّي سبّابتها مشيرة إلى الجندي وقالت: «أتصوّره الآن يعيش في هذه الصورة ما فاته من عمر بيننا». تنزلقُ دمعة من عينيها لتسقط في فنجان القهوة. تكبحُ أمّي نوبة البكاء بالضحك: «فأل جيِّد أن تسقط دمعة في فنجان القهوة. ألا تظنِّين ذلك أيضًا». يبدو أنّ هذه اللحظة هي الأنسب، إنَّها راغبة في تغيير الموضوع. حسنًا كوني شجاعة يا فتحيَّة كبطَّة جميلة وقولي ما جئتِ لأجله: «حسنًا أمّي. هنالك شيء مهمّ أريد أن أقوله. إنّه. إنّه يتعلَّق بالصورة أيضًا». أُشير بعينيّ إلى الصورة مجدَّدًا. تهزّ أمّي رأسها وتبقى ساهمة وكأنَّها بنصف وعي: «نعم يا فتحيَّة. أسمعكِ». تحرِّكُ أمّي كتفيها مجدَّدًا وعلى غير عادتها تبدو ممتلئة بالكلام، فتضيف وهي تمسحُ طرف أنفها: «تصوَّري يا فتحيَّة. تصوَّري. غنيمة تنسى أحيانًا أن ترفع سمَّاعة الهاتف لتحادثني لأيَّام طويلة، ونعيمة وحمدة مشغولتان بالدراسة والصديقات، وأنتِ وعلى الرَّغم من قربكِ منِّي لا تأتين لزيارتي»، تنشغل أمّي بتقطيع التفَّاحة التي بين يديها والشكوى، ترفعُ كتفيها من جديد وكأنَّها تبعد شيئًا ما علق بهما: «لن أعتب عليكِ يا

ابنتي. اعذريني على المقاطعة. هيّا. ماذا أردتِ أن تقولي؟».

بدا الموقف مُحرجًا، ولم أستطع أن أُخفي توتُّري، بينما بدت أمّي أكثر رقَّة وحنانًا، وهي تقبض على يديّ: «حسنًا يا أمّي. الأمر يتعلَّق كما ذكرتُ سابقًا بالصورة..»، تدفَّقتْ سخونة هائلة من يديها إلى يديّ، أصابعها النحيلة والبيضاء تطبق على أصابعي الممتلئة المائلة إلى السُمرة. وحرارة غريبة تتسرَّب من مكان خفيّ. كدتُ أتعرَّق. اتّسعت ابتسامة أمّي حتى ظننتُ أنَّ مسًّا أصابها، عادت أمّي على غير العادة لمقاطعتي مجدَّدًا مُتلفِّتة يمينًا ويسارًا «عندما قلتُ السرّ لغنيمة تضايقت كثيرًا، قالت لي إنّها المهدِّئات يا أمّي، هي ما تفعل ذلك بي». انتفضتُ في مكاني بسبب اتّساع عينيها هذه اللحظة، وتعرَّقتُ كثيرًا لأنّها لم تُفلت يديّ بعد، بل ضغطتْ عليهما أكثر ممّا ينبغي: «أمّي أيّ سرّ؟». تفتَّحتْ أسارير أمّي: «والدكِ». تلفتُّ فزعة وقلتُ: «الله يرحمه. ما به». بدت أمّي لحظتها أشبه بالساحرات اللواتي يخرجن من أفلام الكارتون، وهي تُقرِّب وجهها من أذني: «والدكِ يخرجُ من الصورة كلّ ليلة، ويأتي ليجلس معي ويحكي قصصًا لانهائيَّة، ومن ثم يعود ويجلس في الصورة. يفعل ذلك كلّ ليلة». صعقتُ لكلامها وسحبتُ يديّ من بين يديها برعونة. شعرت برعب هائل يتسلَّل إلى أعماقي، وقفتُ بارتباك، فاندلقت القهوة على الطاولة. صاحت أمّي وهي تضع المزيد من المحارم الورقيَّة على القهوة المندلقة: «فأل سيِّئ. فأل سيِّئ»، فتناولتُ حقيبتي ومضيت، بينما انكبَّتْ أمّي على التنظيف.

وقبل أن أخرج مُتلعثمة من الصالون، لا أدري ما الذي دفعني لتأمُّل وجه الجندي الواقف في الصورة لأوَّل مرّة في حياتي.

كان لديها «سحَّارة» قديمة وبها الكثير من الريالات وأغراض أخرى جاءت بها من المستشفى. وفي أوَّل لقاء لنا بها، اختبأ إخوتي. لم يكن لديها أصابع في كفَّيها ولا أصابع في قدميها. فقط نتوءات صغيرة ومقزِّزة. تجرَّأتُ ودخلتُ غرفتها، كنتُ سعيدة للغاية بذلك الاكتشاف المتأخِّر، أستطيع الآن أن أقول لصديقاتي. أنا أيضًا لديّ «جدَّة» مثلكنّ. أخرجتْ العجوز السحارة، وطلبت منِّي أن أعدّ الريالات.

سارة

الموت يقرفُ من العجوز

يتدفَّق الماءُ فوقي بغزارة كشلَّال. ينسكبُ دمعي فوق خدّي فلا أميِّزه. أتحسَّسُ الحرارة المتَّقدة في جسدي، وهي تصعدُ قليلاً ثم ترتدُّ خائبة. كنتُ مُنهكة. أشعر بألم هائل وحموضة تصعدُ من معدتي، وكأنِّي خرجتُ للتوّ من معركة خاسرة وفقدتُ آخر جنودي في خيمة الشراشف البائسة تلك.

الشيء الوحيد الذي تذكَّرته تحت دشّ الماء، هي تلك الجملة التي ظلّت تُردِّدها العجوز بآليَّة مُفرطة: «إنّه يقرفُ منِّي. لذلك لم يزرني بعد».

ربَّما لهذا السبب لم يُدركني البكاء أو الحزن للوهلة الأولى، عندما قالت لي أمّي في سمَّاعة هاتف المستشفى: «لقد ماتت العجوز». فزيارة الموت لها ـ وإن جاء متأخِّرًا جدًّا ـ كان يعني بالضرورة انتفاء قرف الموت الذي تصوَّرته العجوز. لذا لم أجد أهمِّيَّة كبيرة للبكاء، بل إنِّي شعرتُ بالغبطة لأجلها، وسط الصراخ والعويل

المُتكاثر من حولي.

لكنَّ ذلك بالتأكيد لا يُبرِّر لقريبتي السمينة والمتعجرفة أن تُملي عليّ مهمَّة تغسيلها. «وما أدراني أنا بغسل الموتى!». سدّدتْ لي تلك النظرة العابسة المليئة بالادّعاء: «طوال حياتكِ تقرأين الكتب، ولم تقرأي يومًا عن تغسيل الموتى؟». رفعتُ كتفيّ: «ولمَ عساي أفعل».

وقعتُ في ورطة كبيرة. هذا أقلّ ما يمكن أن يُقال الآن. لأنَّ خالتي ترقدُ على سرير المرض وأمِّي مُنهارة وتبكي بصورة غير مُتوقَّعة. كانت جدَّتي ميِّتة فعليًّا على سريرها منذ ستّ سنوات، ولم أجد ضرورة كبيرة لكلّ ذلك اللطم. يبدو أنِّي الوحيدة التي أعطيتُ الآخرين انطباعًا جيِّدًا حول تماسكي، ولكنْ لم أتوقَّع أن يغدو ذلك مُبرّرًا لمهمَّة لم أولد لأجلها تقتربُ منِّي قريبتي بغضبها وتجهّمها المُعتاد وعباءتها الفضفاضة الواقفة فوق رأسها، ترفعُ سبّابتها في وجهي تمامًا: «أولى الناس بها القربى فالقربى من نسائها».

لكنْ، لماذا ليس الجارات والصديقات وقريباتها من الدرجة الثانية والثالثة، لماذا ينبغي أن أكون أنا، وأنا أوسط أخواتي ولستُ أكبرهنّ؟

خرج الأمر من يدي، وجدتُ البنات المُسرفات في البكاء يزججن بي إلى مفرش أبيض فرشنه تحت شجرة المانجو وافرة الظلال في مزرعة جدِّي. أحطنَ بي بشراشف مُلوَّنة من كلّ الجهات. كلّ بنت تمسكُ بطرف، لم يكن المكان في الداخل مُعتمًا. كان الضوء يتسربل من الشقوق الصغيرة، والهواء يُحرِّك أطراف الشراشف السفليَّة. حصل ذلك بالقرب من حوض الماء النازف إلى سواقي النخيل. وجدتُ نفسي في خيمة عجيبة وليس معي سوى جثَّة العجوز الهزيلة المُنطوية على نفسها، وأصوات البكاء والزعيق تتعالى في الخارج. دخلتْ أمِّي

معي إلى الخيمة. كانت مُنهارة وليس بوسعها فعل شيء سوى أن تضرب الأرض بدمعها الكثيف. الغريب أنّ دمع أمِّي كان حقيقيًّا كنتُ مُتعجِّبة منها، لأنَّ موت العجوز كان متوقَّعًا، بل ولأكن وقحة كان موتها مُنتظرًا أشياء كثيرة في حياتنا كانت مُؤجَّلة إلى لحظة الموت هذه. أمّي كانت تُفكِّر بالذهاب إلى الحجّ، وقد أجَّلت ذلك لأكثر من ثلاث مرَّات لأجل رعاية العجوز، وأخي كان يؤجِّل زواجه من خطيبته ريثما تموت العجوز التي احتلَّت غرفة منفردة ودورة مياه من بيتنا الصغير، وأبي ألمح لأكثر من مرّة بمشاريعه المؤجَّلة ريثما تتفرَّغ أمِّي وتلتفتُ قليلاً لأجله.

من وراء خيمة الشراشف، صرخت قريبتي المتعجرفة: «هل تعرفين ما ينبغي عليك فعله». قلتُ: «وكيف لي أن أعرف!». كنتُ أرغب في الانسحاب والهروب من تلك المسرحيَّة الهزليَّة، ولكن ضعف أمِّي وخيبتها جعلاني أتمهَّلُ قليلاً

التقطتُ أنفاسي بصعوبة. لم يكن الأمر سهلاً كانت هذه هي المرّة الأولى التي أكون فيها بهذا القرب من جثَّة. بدأتُ الاقتراب منها وتفحُّصها قليلاً كمن يشكُّ في موتها كانت باردة جدًّا. مكثتْ في ثلَّاجة الموتى ليلة كاملة ريثما جُهّزت سيَّارة الإسعاف لنقلها من المستشفى إلى البيت. أردتُ أن أقول لها شيئًا شيئًا ما يليقُ بتلك اللحظة الخاصَّة التي يستحيلُ أن تتكرَّر، ولكن لم أجد كلامًا مُناسبًا ثم كان عليّ التجرُّؤ أكثر على لمسها توقَّعتُ أنّ كلّ الجثث تكون متمدِّدة ومسترخية بالعادة، ولكنَّ العجوز كانت تطوي نفسها كجنين. التقطتُ صوت قريبتي مُجدَّدًا: «جرِّديها من ثيابها». ابتلعتُ ريقي. لم يكن الأمر سهلاً فعلت ذلك من قبل. لا أذكر تحديدًا: ستّ أو ثمان

مرّات برفقة أمّي في السنتين الأخيرتين، عندما كنتُ أساعدها على تجريدها من ثيابها قبل الاستحمام. كثيرًا ما كنتُ أوشك على التقيُّؤ، فما إن أزيح ثيابها حتى تفترسني رائحة البول والبراز الحادّة، ولم يكن لديّ خيار سوى أن أكتم نفسي وأن أجلب الهواء عبر فمي بدلاً من أنفي. بينما لم يكن يبدو على أمّي الامتعاض آنذاك، وكأنَّها لا تفعل ذلك على مضض. كانت تفتح حفّاظة العجوز وتغسل سائر جسدها بالماء المتدفِّق من الصنبور، وكأنَّها لا ترى ولا تشمّ ولا تسمع شيئًا

حسنًا، لم يكن لديّ خيار. من عساه سيفعل ذلك سواي. بدأتُ برفعها عن الأرض قليلاً لم أكن أظنّ أنّ امرأة هزيلة وبارزة العظام مثلها بالغة الثقل. لم أتمكّن من خلع ثيابها وهي منكمشة. ناولتني قريبتي مقصًّا وبدأتُ بتمزيق ثيابها بهدوء وصبر كبير، ثم رفعتها عنها بيسر. كان منظر اللحم الغامق والمنكمش على العظام المنحنية يثير الحزن في نفسي. كنتُ أستطيع عدّ عظام عمودها الفقري عظمًا عظمًا. كانت مستسلمة كطفل وديع بين يديّ. أرعبني صوت قريبتي مجدَّدًا: «استري ما بين سرّتها وركبتيها. ستركِ الله».

فكَّرتُ لحظتها أنّه مهما بلغ بي العجز، فلن أفكِّر أبدًا في انتظار الموت كما فعلت العجوز، كما لن أفكِّر بأنَّ تأخُّره يعني بالضرورة قرفه منِّي. ربَّما فعلتْ هي ذلك. لأنّه لم يعد لديها صديقات. ماتت جاراتها المُسنِّات. ماتت أغلب نساء الجيل الذي تلاها وبقيت في الدور تتشبّث بفرصة مجيئه إليها لم تكن مُصابة بالسكَّر أو بالضغط ولا حتى بأمراض القلب، بل إنّ ذاكرتها كانت ممتازة جدًّا. ببساطة لقد ماتت بالشيخوخة لا أكثر. لم تكن تجيبُ بدقَّة حول أسئلتي عن عُمرها كلّ ما تقوله: «ليس عندي شهادة ميلاد مثلكِ». وألحُّ عليها

أن تعطي رقمًا تقريبيًا لكنَّها لا تفعل، ثم تندب حظَّها وتشتم.

كنتُ في العاشرة من عمري عندما اكتشفتُ أنّ لي جدَّة. لم تكن أمّي تتحدَّث عنها كثيرًا. بل إنّي لم أسمع أمّي يومًا تُنادي أمّها بـ «أمّي»، أو الوالدة، أو أيّ كلمة تحمل هذه الدلالة. الكلمة التي قالتها لنا جميعًا، وأصبحنا جميعًا نقولها نحن والأقرباء والجيران: «العجوز». العجوز قالت، العجوز ذهبت، العجوز أكلت. وإلى زمن وفاتها لم يسأل أحد منّا عن اسم العجوز، ولم نقل لها يومًا كما يقول أقرباؤنا لأمّهات أمّهاتهم، «جدَّتي». صار «العجوز» اسمًا مألوفًا. صار اسمها صار يُشبهها كثيرًا وصرنا جميعًا لا نتصوَّر أن يكون لها اسم آخر غير ذلك.

كانت العجوز لزمن طويل معزولة عن الناس، لأنّها مُصابة بالجذام. شكّ الأطبَّاءُ أنّه مرض مُعدٍ، فبقيت لسنوات طويلة تتلقَّى علاجها في غرفة انفراديَّة، واضطرَّت لأن تتنازل عن أمّي بعد أن أرضعتها لسنتين، وعن خالتي التي كانت في الرابعة من عمرها، تركتهما لرعاية الأقرباء، ولم يذهبن لزيارتها إلّا مرّة أو مرَّتين كلّ عام.

كانت لديها سحَّارة ممتلئة بالريالات القديمة والمُتآكلة، وبعضها قضمته الفئران. توقَّعتُ للحظة أنّ الفئران التي قضمت أطراف الريالات، يمكن أن تكون هي أيضًا من قضمت أصابع جدَّتي. تصوَّرتُ لاحقًا كم أنّ حياتها بائسة. تخيَّلتها تجلس وحيدة في غرفة انفراديَّة في المستشفى بصحبة فئران تقضمها.

لم تكن تنظر إليّ. غشاوة بيضاء كانت تُغطّي عينيها. لم أعرف ما لون عينيها أبدًا. كما أنّ التجاعيد الوفيرة على وجهها لم تسمح لي أن أكتشف أيّ واحدة من أخواتي تُشبهها أمّي قالت إنّه: «نزول أبيض».

قلتُ للعجوز: «إنّها مئة وخمسة وتسعين ريالا». ابتهجت وطلبت منِّي أن آخذ الخمسة. كان ذلك أكبر مبلغ أحظى به في حياتي آنذاك.

لكنَّ العجوز لا تكفّ عن ترديد الشتائم. سمعتُ الكلمات الأكثر بذاءة في العالم منها. وكانت أمّي تغضب وتُخبرها أنَّ هذا لا يُقال أمام البنات. أمّي كانت حريصة على ألّا تقول كلمات نابية أمامنا لكنْ لم يعد ممكنًا للعجوز أن تترك عاداتها في هذا العمر.

في المرّة الأولى، سألت أمّي:

ـ أين تربَّت العجوز يا ماما؟

ـ في المستشفى.

ينتشلني صوت قريبتي. طلبت منِّي هذه المرّة أن أرفع جذعها، كان ثقيلاً شعرتُ أنّي لا أستطيع تحمُّل ثقله. قالت لي: «اعصري بطنها». لكنْ كيف يمكنني فعل ذلك!

أطلّ رأس امرأة عجوز من تحت الشراشف. كانت تنظر إليّ مباشرة لكي لا تقع عيناها على عورة جدَّتي. قالت لي: «أجلسيها واجلسي أنتِ خلفها أسندي رأسها إلى صدرك. اضغطي بكلتا يديك على بطنها». فعلتُ ذلك بدقَّة، فأفزعني تجشّؤ العجوز. لقد تجشَّأت حقًّا. ظننتُ أنّ الحياة عادت إليها لكنْ كيف فعلتُ ذلك؟ إنَّها ميِّتة. تسألني قريبتي: «هل تجشّأت حقًّا؟» أرفع صوتي: «نعم». قالت بارتياح: «جيِّد. أنتِ تبلين حسنًا».

لم يُفارق أمّي إحساسها أنّ مرض العجوز لم يعد مُعديًا. اشترت صحونًا وأكوابًا خاصَّة بها ومنعتنا من استخدام أغراضها. كانت تغسل ملابس العجوز في سطل خاصّ لا تُعيد استخدامه لملابسنا. وبسرِّيَّة تامّة، تتخلَّص من أغراض جدَّتي الموجودة في السّحارة وهي تقول:

«إنَّها زائدة عن حاجتها».

تقدِّمُ لها أمّي كلّ أنواع الخدمة الممكنة. ترتدي القفَّازات، تنظِّف سريرها يوميًا، تُحمِّمها يومًا عقب يوم، وتغسل فمها وتسرِّح لها شعرها ومن ثم تبخِّرها وتُعطِّر ثيابها تهرسُ لها الخبز مع الحليب، وتضعه في فمها لقمة لقمة، وكأنّ أمّي أنجبت طفلاً جديدًا لن يكبر أبدًا. في ساعات الضحى، تُعدّ لها القهوة مع التمر تثرثرُ جدّتي في كلّ شيء، وتأتي بقصص غريبة، لكنَّ أمّي لا تُعيرها انتباهًا تنجزُ مهمَّتها على أكمل وجه، وتنسحب بصمت.

اضطرَّت أمّي مؤخَّرًا أن تشتري لها الحفاظ عندما بدأت تلوِّثُ ملابسها ولا تتحكَّم برغباتها المُلحَّة. وأذكر جيِّدًا أنَّ أقذع الشتائم تطلقها العجوز في تلك اللحظة تحديدًا. اللحظة التي تنكشف أمّي على عورتها، ورغم أنِّي لا أفهم الكثير ممّا تقول، لكنِّي متأكِّدة أنّها كانت تجرح أمِّي كثيرًا لكنَّ كلّ ذلك لم يمنع أمِّي من تقديم الخدمة على أكمل وجه، بل إنّها لم تسمح للخادمة أن تفعل ذلك نيابة عنها حتى في أيَّام مرضها كانت حريصة على أن تكون العجوز في أفضل أحوالها، تفتح لها شبابيك الغرفة، وتسمح للضوء أن يملأ المكان كلّ صباح، فتفتح العجوز برميلاً من الشتائم القذرة من دون مناسبة.

بتفصيل أكثر، كانت أمِّي مُهتمَّة بالناس. ردَّدتْ ذلك لأكثر من مرّة وبأكثر من طريقة: «على الأقلّ. الناس تعلم أنِّي لم أقصِّر يومًا معها». الضيوف يأتون يوميًا لإلقاء التحيَّة على العجوز. الجارات يأتين ليس من أجل النميمة والقهوة وحسب. بل يقتربن من الجدَّة ويشممن رائحتها، يتأكَّدن من أنّ أمّي امرأة صالحة، لا تدّخر جهدًا لخدمتها.

أظنّ لو أنّ ثمَّة ما تغيّر في ذلك، لو أنّ أمِّي فتحت أذنيها لشتائم

العجوز، لو أنّها رفعت صوتها لمرّة واحدة عليها، أو رفضت أن تُعطيها الطعام الذي يحدثُ أن تبصقُ به العجوز في وجه أمّي أو ترفسه بساقها القويَّة، تحديدًا بواسطة تلك النتوءات الصغيرة البارزة منِ قدميها. لو أنّ أمّي اعترضت، أو توقَّفت عن تبديل حفاظها النتن، أو عن تنظيف غرفتها البائسة، وفتح شبابيكها للتهوية لمرّة واحدة وحسب، أظنّ أنّ ذلك كان سيحدثُ بلبلة كبيرة في حارة صغيرة جُلّ حياتها وتسليتها تنهضُ على تناقل قصص من هذا النوع.

أمّي تفعل كلّ هذا بالتأكيد لكي لا تكون تسلية الحارة وقت شرب القهوة. طلبت منّا مرارًا وتكرارًا أن نُقدِّم أفضل ما لدينا «لأنَّ الناس لا ترحم». أظنّ أنّ أمّي نجحت إلى حدّ كبير في إقناع الناس ببراعتها، ولذا لم يكن هنالك من يستطيع أن يقول شيئًا عنها، أيّ شيء سوى الإشادة بصفاتها الطيِّبة.

لكنّ أمّي بدأت تتورَّط مع العجوز. تحديدًا مع لسانها. لأكثر من مرّة سمعتُ أمّي تطلبُ من أمّها أن تتوقَّف عن إطلاق الشتائم أمام الجيران. «على الأقلّ أمام الجيران». وعندما لم تتمكَّن أمّي من تقويم ما اعوجّ في لسان العجوز، بدأت تُفكِّر في خطَّة. خطَّة تغيّر من موقف الجارات المشمئزَّات من السِبَاب اليومي. بعضهنّ انقطع حتى عن المجيء لشرب قهوة الضحى في بيتنا وكان ذلك يُقلق أمّي كثيرًا، وهي التي اجتهدت لسنوات طويلة على نسج العلاقة مع جيرانها بحذر شديد، فلم تجرح أحدًا ولم تدّخر جهد معونتهم، ولم تبدِ إلَّا أفضل ما عندها لإبهاجهم. أمّي تحتاج جيرانها. تحتاج إلى وجودهم. إنَّها ليست شيئًا البتَّة بدونهم.

الجارات يسكبن عليها الإطراء، فتنتشي كطفلة: «بيتكِ نظيف،

طبخكِ شهيّ، وبناتكِ مُرتَّبات وخلوقات جدًّا». كنَّا نلقي التحيَّة بالطريقة التي تحبّ أمّي، وننسحب من الأحاديث الساخنة في اللحظة التي تحبّ أمّي أن نفعل ذلك، ونُفاجئ الجيران بأنَّنا نُشبهها كثيرًا ـ حتى وإن كان ذلك ليس حقيقيًّا تمامًا ـ، فنحن أيضًا نطبخ الكعك وننظِّف غُرفنا، ونضحك من دون أن نُصدر صوتًا، ونحتفظ بخزائن أحزاننا وأسرارنا في قلوبنا، ولا نبوح بشيء إلَّا الشُكر، ونؤكِّد دومًا على أنّ دور العاملة في بيتنا هامشيّ جدًّا

كنتُ أعرف ما معنى أن تنقطع جارة من جارات أمّي عن بيتنا. إنّ ذلك يثير غضبها ويوجعها في العمق، ولذا كان لا بدّ من خُطَّة مُحكمة.

السبب الأبعد لتوتُّر أمّي وهياجها في البيت لعدّة أيَّام، أعني السبب الآخر المُضاف إلى لسان العجوز الوسخ، يرجعُ لأنّ العجوز لم تكن تصلِّي، وعلى الرَّغم من إصرار أمّي لأخذها للوضوء أيَّام احتفاظها بصحَّتها الجيِّدة وقدرتها على المشي، كانت العجوز تكتفي بأن تبصق في وجهها. الأمر الذي دفع أمِّي للتوقُّف عن طلب ذلك. الأمر لم يكن هيِّنًا على أمّي أبدًا. كان يُشعرها بالعار والخزي، خصوصًا أنّ موضوع الصلاة هو أحد أهمّ أسئلة الجيران في السنوات الأولى لمكوث العجوز معنا، فرغم ما أكلته الفئران من أصابعها، ورغم النزول الأبيض في عينيها، ورغم التقوُّس البارز فوق ظهرها كهضبة، كانت تتمتَّع بصحَّة جيِّدة، وكانت تستطيع أن تهتمّ بشؤونها جيِّدًا باستثناء تمشيط الشعر الذي كنتُ كثيرًا ما أتولَّاه نيابة عنها. ويبدو أنّ الجيران لم يتمكَّنوا من إخفاء دهشتهم، فهي تتمتَّع بصحَّتها وبذاكرتها ولا تصلِّي! «هل يعقل ذلك». كما أنّ محاولة أمِّي الدائمة

للالتفاف حول الموضوع، عبر الإشارة المُتحايلة للحياة الطويلة التي قضتها العجوز في المستشفى، تلك الحياة التي أنستها الصلاة. لم يكن سببًا مُقنعًا لجيرانها الشاعرين بالاستياء. بل إنّهم بطريقة أو بأخرى كانوا يُسرِّبون لأمّي شعورًا مستمرًّا أنَّها كما يبدو مُقصِّرة في نصحها، وأنَّها لا تقوم بواجبها على أكمل وجه. حتى وإن كانوا لا يقولون ذلك صراحة إلَّا أنَّهم يفعلون.

الشراشف من حولي تتمايل بفعل الهواء. كُنّ يُمسكن بها جيِّدًا شراشف مُلوَّنة ونظيفة. وأمّي تنحني لتعدّ دمعها ولتضغط على مرفقيّ وتعتذر منِّي، لأنّ لا حول لها ولا قوَّة لفعل شيء معي. لقد بقيت أمّي برفقة العجوز في المستشفى ليلتين كاملتين بدون نوم إلى أن فارقت العجوز الحياة. كنتُ أفكِّر حول ما يمكن أن يكون قد حدث تحديدًا في تينك الليلتين، وجعل أمّي مُختلفة. ما الذي فاتني! أم أنّ أمّي ما زالت تحصد شفقة جيرانها بدمعها الغزير؟ بنات عمّي وأخوالي تصايحن وهنَّ يجلبنَ الماء من حوض المزرعة. وصل خرطوم الماء أخيرًا «تأكَّدي من دفء الماء»، قالت إحداهنّ ـ لا أعرف من عساها تكون! خيمة الشراشف جعلت حدسي يجتهد طويلاً في تمييز الأصوات. حادّة وقويَّة، لطيفة وأخرى باكية ومتحشرجة. تستمرُّ قريبتي المتعجرفة في توبيخي: «ألا تعرفين كيف تفعلين ذلك؟». تكرِّر سؤالها الغبيّ نفسه: «ألم تقرئي يومًا عن غسل الميت؟».

بذلتُ قصارى جهدي لأمدِّد جسدها، أردتُ أن أرخي يديها وقدميها، لكنَّها بقيت متصلِّبة تشدّ أطرافها إليها. «صبّي الماء عليها. الكثير من الماء. دعي الماء يتدفَّق». كان صوت سيِّدة عجوز هذه المرّة. بدأتُ بتمرير الماء على جسدها. صوت قريبتي يُفزعني مجدَّدًا:

«انتبهي. لا تدخلي الماء في فمها أو أنفها بلّلي يديكِ وأدخليها بين شفتيها، امسحي على أسنانها». لم تكن هنالك أسنان. كان فمها فارغًا تمامًا إلّا من بقايا رحى مُتكسِّرة. فتحتُ فمها مجدَّدًا. لو كانت تملكُ شيئًا من قوّتها الآن لكانت بصقت عليّ وعلى أمّي، كانت ستقول كلامًا ثقيل الوقع على أذنينا، لكنَّها الآن أضعف من أن تفعل. أطبقتُ على فمها.

كنتُ أشعر أنّ أمّي في قرارة نفسها ترغبُ بشدَّة في التخلُّص من العجوز من دون أن تقول ذلك صراحة ولا حتى لنفسها. ببساطة شديدة، العجوز كانت تفسدُ كلّ شيء، بل إنّها لم تتورَّع في إفشاء بعض الأسرار العاديَّة جدًّا، والتي تتحفَّظ أمّي عليها أكثر من اللازم. بل إنّ ذلك دفع أمّي لأن تبكي لأكثر من نصف ساعة متواصلة في الحمَّام، بينما وجدتْ العجوز أنّه سبب تافه. تافه جدًّا لأن تنزعج، «الناس تعرف حماقاتنا لتضحك عليها، وهكذا تُنسى الحماقات ما إن تُحكى».

بإصرار مُدهش وتأكيدات مستمرَّة وفي أكثر من مناسبة، بدأت أمّي تنفيذ خطَّتها السرِّيَّة، تلك التي لا أدري كيف تدبَّرت أمرها، بدأ الأمر من إشاعة صغيرة، «العجوز مسكينة ومُصابة بالخرف». ثم كبرت الإشاعة وأصبحت حقيقة، حقيقة ولا يمكن لأحد إلّا أن يُصدِّقها

فكرة «الخرف»، كانت كفيلة بجعل الناس تتفهَّم الوضع جيِّدًا. بل إنّ الجيران أبدوا تعاطفهم الشديد مع أمّي ومع جهدها الدؤوب لإرضاء عجوز خرفة. وعندما كانت العجوز تندفع في إطلاق الشتائم والقصص الماجنة والتي لا أعرف إن كانت حدثت حقًّا في المستشفى الانفرادي الذي كانت فيه، أم أنّ خيالها المريض هو من كان يصوِّر لها ذلك.

كان الجيران يشدُّون على يديّ أمِّي، ويؤازرونها، «صدِّقي، ليس ثمَّة ما هو أصعب من إرضاء عجوز خرفة!».

لم تمرّ على أمّي لحظة سلام كتلك اللحظة، منذ أن دخلت العجوز بيتنا. حتى إنّ أمّي بدأت تصدِّقُ أنّ العجوز خرفة حقًّا، وأنّ كلّ الشتائم والبُصاق القذر لا يصدر عن شخص عاقل، ورغم ذاكرة جدَّتي القويَّة والقادرة على التقاط التفاصيل من أعمق بئر في ذاكرتها، إلَّا أنّ الجارات قلنَ: «انظرن إلى هذا الخرف الذي يستدعي كلّ هذا السيل من الحكايات وكأنّها حصلت بالفعل». لا أعرف بالفعل كيف فعلت أمّي ذلك بإصرار وشجاعة. كانت مؤمنة في أعماقها أنّها لا تفعل شيئًا شرِّيرًا البتَّة. فقط كانت تنقذُ بيتها. تنقذ حياتها التي أفسدتها العجوز. الجميع صدّق قصَّة الخرف بمن فيهم أنا وآنذاك تحديدًا، بدأت جدَّتي تقول عباراتها الشهيرة: «لماذا يقرف منِّي الموت؟».

الصوت المتعجرف مجدَّدًا «ضعي يدكِ في خرقة واغسلي مخرجيها». صرختُ: «ماذا؟». سحبتْ الشرشف وأشارتْ بسبَّابتها: «ماذا ألا تفهمين مخرجيها؟». وتابعت قائلة: «اغسلي جيِّدًا، ولا تلمسيها بشكل مباشر. إنَّهما عورة. عورة. ألا تفهمين؟».

المرّة الوحيدة التي خرجتْ فيها أمّي عن طورها صفعت العجوز. لم أكن أعلم بذلك إلى أن طلبت منِّي بإلحاح كبير أن أتَّصل بمكتب الإفتاء. ثم سمعتُ القصَّة كاملة. كانت أمِّي تنشج بالبكاء وتشعرُ بندم هائل. حكت للشيخ أنّها قيَّدت يديّ العجوز إلى السرير، نظرًا لأنَّها تحرِّكُ جسدها كثيرًا، ويحصل كثيرًا أن تلطمها بدأت في إطعامها، فرفست العجوز الطعام بالنتوءات الصغيرة في قدمها اليسرى، فسقط الطعام الساخن على ثياب أمِّي وعلى السجَّاد، ولم تتمكَّن أمِّي من منع

نفسها. صفعتها بقوَّة. بقوَّة جعلت أمّي تبكي ندمًا ليوم كامل. في ذلك المساء، توسَّلتْ أمّي ألَّا أخبر أحدًا بما حصل، وأن يبقى الموضوع سرًّا بيننا، وجلستْ تحكي لي الكثير من المواعظ المُملَّة حول ما تفعله لحظة الغضب بالإنسان. وبالرَّغم من أنّها لم تكن مضطرَّة لأن تحلف أمامي، لكنَّها حلفت بأغلظ الأيمان ألَّا تعود لفعلتها تلك مهما فعلت العجوز بها

تدهورت صحَّة العجوز بسبب الشيخوخة، فقدت قدرتها على الذهاب إلى الحمَّام، وقدرتها على مضغ الطعام، ولم يكن على لسانها سوى الشتائم، وقصص المستشفى العجيبة، والحديث عن الموت الذي قرف منها فتأخَّر كثيرًا عن موعده.

صاحت قريبتي: «والآن افعلي وكأنَّكِ تجهِّزينها للوضوء. ابدئي من اليمين دائمًا، ولا تنسي أن تنوي. النيَّة قبل كلّ شيء». أخواتي خارج خيمة الشراشف يضربن السدر، يخلطنه في الماء حتى أصبحت له رغوة. ناولنني إيَّاه من وراء الستارة. بدأتُ أمسحُ به على سائر جسدها ابتداءً من شعرها الأسود والذي أثار عجبي، لأنَّ البياض لم يخالطه كثيرًا كنتُ وكأنّي أراه للمرَّة الأولى. أمرِّرُ السدر على سائر العظام البارزة والمنحنية. غسلتُ شقَّها الأيمن ثم الأيسر ثلاثًا ثلاثًا ومرَّرتُ الماء على بطنها ناولتني أختي الأخرى الكافور، كان طيِّب الرائحة أبيض اللون.

خفتَ خوفي وفزعي، وشعرتُ أنّي أعرف هذه المرأة، أعرفها جيِّدًا إنّها تتجهَّز بشكل جيِّد لتليق بالموت الذي انتظرته طويلاً لذا صنعتُ لها ضفائر صغيرة كما كنتُ أفعل لها من قبل. كان شعرها الأسود ناعمًا وخفيفًا لدرجة أنّي تبيَّنتُ منابت شعرها ثم تناولتُ

مقصًّا وقلَّمتُ أظافرها، كما لو كانت طفلة، ينبغي أن تكون لائقة بالرحلة التي تنتظرها. ساعدتني أمّي والسيِّدة العجوز على وضعها في أثوابها الخمسة، الإزار والخمار والقميص واللفافتين. كان ذلك صعبًا جدًّا أصعب ممَّا توقَّعت. أصعبُ ممَّا أظنّ أنَّني أستطيع. لكنِّي فعلتُ ذلك بصبر، تلقَّيتُ المعلومات بدقَّة تامَّة. ولكنِّي لم أعد مهتمَّة بإنجاز الأمر بسرعة. لم أعد مستعجلة. كنتُ أريد أن أجلس معها لأستمع لقصص المستشفى العجيبة تلك. كنتُ أتمنَّى في تلك اللحظة التي أقول فيها: «لقد انتهيت»، أن تشتمني، أن تقذفَ في وجهي كلّ الكلام الذي أفتقده الآن بشدَّة، والذي لن يقوله أحد لنا بعد اليوم. فلا أحد يجرؤ على ذلك.

لأوَّل مرّة، أظنّ أنّي سأفتقدُ شتائمها المُحلّقة في الهواء والمُنسجمة معها كأنّها جزءٌ منها كأنّها لم تقل سوى كلامٍ عاديٍّ ومألوف؛ وبالمناسبة، العجوز لا تشتم وقت الغضب وحسب. كانت تشتمُ وهي تأكل وهي توشك على النوم، تشتم وهي تضحك معنا. سيل لا ينتهي من الشتائم الطازجة، من دون أن نُدرك من أيّ نبع تغرفُ كلّ ذلك الاستمتاع الخاصّ بالشتم.

خرجتُ من خيمة الشراشف. لم يُهنِّئني أحد. لم يلتفت لي أحد. تحلّق الجميع حول العجوز وكفنها المحكم. وانطلقتُ أنا كسندريلَّا هاربة من رقصة أمير بغيض، كنتُ كمسبحة تحتكّ بين أصبعين. قريبتي المُتعجرفة صرخت بي مجدِّدًا: «عليكِ أن تغتسلي الآن».

وقتها، كانت هنالك شتيمة وقحة على طرف لساني. شتيمة كانت ستفزعُ الجارات، وقد تُسبِّب الشلل لأمّي.

ليتني أُغلق «اللمبة» الخاصّة بالتفكير، وأبقى في العتمة لا أفكّر إلَّا بيديّ وروائح «ماسي» وهما تمتصّان تعبي. أنبسط وأتراخى، لأنسى الصداع والرجل الذي خرج من حياتي مؤخَّرًا.

نوف

فيشل «ماسي»

تعرفُ «ماسي» تمامًا أين تضع أصابعها، تعرفُ أين تضغط وأين تليِّن، أين تُقشِّر بأظافرها، وأين تمسح براحتيها، وأنا تحت يديها الناعمتين أنتشي. أغمضتُ عينيّ، واستمرَّت تفركُ وجهي بحركات دائريَّة وأخرى أفقيَّة.

تتناوب الروائح التي تضعها «ماسي» على أنفي. أعرفُ هذه الرائحة جيِّدًا. تُذكِّرني بعطر جدَّتي «شويخ». أذكره، لأنّها كانت لا تقبل بأن نُسلِّم عليها ولا أن نقبِّلها كانت ترغب دائمًا في أن تحضننا. تفتحُ يديها الكبيرتين وتضمّنا كلّنا أنا وإخوتي وأبناء عمِّي. لا أدري كيف كان حضنها يتَّسع لنا كلّنا، لكنَّها كانت تفعل ذلك. بل كانت تُجلسنا على حجرها وتحكي لنا القصص. قصص مُضحكة لا تسلسل فيها، تُعيدها وتكرِّرها مرَّات ومرَّات، ولم نكن نملَّها ولا نطلب منها التوقُّف. أتخدَّر برائحة عطرها وأنا أضع رأسي دائمًا على صدرها الأيسر، فتتسلَّل الرائحة لأعماق روحي.

رائحة أخرى تغزو أنفي. أظنّها رائحة زهر الليمون. ما أزكى هذه الرائحة، أرتخي أكثر، أفكّر في حركاتِ «ماسي»، تنزلُ يديها إلى عنقي وتعاودُ الصعود في حركات سريعة، ما تلبثُ أن تهدأ وترقّ. تُجرِّبُ مسحوقًا خشنًا وتفركُ وجنتيّ، أنكمش. تنطلق رائحة عطريَّة قويَّة. أوشكُ على العطس. أمسكُ نفسي. أبلعُ عطستي. تكبر رغبتي بأن أحكّ أنفي. لكنَّ يديها تفهماني جيِّدًا، تفعلان ذلك عوضًا عنِّي، تنزل أصابعها من أعلى الجبهة، وتضغطُ سبّابتيها على طرفيْ أنفي. أشعرُ بارتياح الآن.

ترى بماذا تفكِّرين الآن يا «ماسي»، في هذه الدقائق من هذه النصف ساعة على وجه الدقَّة؟ تظنِّين أنّي جئتُ أتزيَّن من أجل رجل ما مثلاً؟ لا هذا غير صائب، جئتُ لأجل نفسي، فأنا مُجهدة ولا شيء كيديك يا «ماسي» يُزيح عنِّي كوارث التعب. أنا أكافئ إحباطي الهائل بيديكِ، هل لكِ أن تتصوَّري ذلك؟ أنا وأنتِ فقط نعرف أين يسكن هذا الصداع اللعين، لكنَّك أشطر منِّي، أنت تلاحقينه جيِّدًا، تُمسكين مرّة برأسه وفي كثير من الأحيان بذيله الرفيع، حركاتكِ الدائريَّة حول العينين تسحبانه جيِّدًا، ضغط سبَّابتيك وإبهاميك على حاجبيّ يجعلاني أشعر أنَّكِ تطاردينه كأنَّكِ تُشاهدين جسده، فلا يعرف أين يفرّ من بين أصابعك. أعرف رائحة هذا المسحوق، إنَّها رائحة التوت، رائحته صاخبة، تُشعرني بالانتشاء. استمرِّي هكذا في تدليلي، فلا أحد يُجيد تدليل هذا الجسد، لكنْ أتمنَّى أن تقولي شيئًا، أيّ شيء، أن تفعلي شيئًا آخر غير الابتسام، فأنا منذ عرفتُ أناملك لم أستبدلها بأخرى، قلتُ لكِ «يداكِ تلفُّ بالحرير»، ولم يكن يحدث أكثر من أن تندفع كريات الدم الحمراء إلى وجنتيكِ. قولي شيئًا يا «ماسي». أشعر أنِّي

داخل كهف مُظلم، سكَّة حديد لولبيَّة تدور بي، و«لمبة» أفكاري اللعينة لا تكفّ عن الإضاءة. قولي شيئًا. لنقترح مثلاً حديثًا عن الفيضانات في الفلبِّين، عن أطفالكِ، لم تحكي لي يومًا شيئًا عنهم، قلتِ إنَّهما بنت وولد، ولم تفتحِي محفظتكِ لتريني صورتهما معًا بعيونهما الضيِّقة، أتصوَّر أنّ لهما عينيكِ. تبًّا لهذه «اللمبة» التي لا تحترق، ها هو عقلي يقترح عليّ صورًا لأطفالكِ، وينسى أمر سكَّة الحديد اللولبيَّة.

حسنًا، أنا أيضًا لم أخبركِ يا «ماسي» عن شيء، لا أحد يعرف أصلاً أنِّي أتدرَّب لكي يصبح لي صدر يجلبُ لي عريسًا، فالعرسان لا يحبُّون امرأة مثلي بلا تضاريس.

أذهبُ إلى الاختصاصيَّة التي تُحدِّد لي نوع طعامي ورياضتي لكي يبرز لي نهدان، لا يعقل أنِّي في السادسة والثلاثين وما زلتُ امرأة مُسطَّحة، لا يزعجني ذلك، صدِّقيني يا «ماسي»، ولكنَّه يُزعج العرسان. لكنْ، ما هذه الرائحة؟ أهو الخوخ أم الدرَّاق؟ لا أستطيع أن أحدِّد بدقَّة، لكنَّها رائحة باردة وهادئة تتسلَّل إلى رئتيّ بخفَّة، حركة يديك تتلاءم دومًا مع الرائحة، ها هي أصابعكِ تترفَّق بي مجدَّدًا

أنتِ أيضًا يا ماسي امرأة مُنبسطة مثلي، ولكنَّك أرضعتِ بنتًا وولدًا حسنًا أنتِ لم تقولي لي هذا بالضبط، ولكنْ بالضرورة يمكن أن تكوني قد أرضعتهما على الأقلّ الأشهر الأولى. لم ينتقص انبساطك منكِ شيئًا، كنتِ في حضن رجل وكان في حضنك طفلان، أنتِ لم تقولي هذا، ولكن بالضرورة يحدث ذلك يا «ماسي». يااااه. لا تقتربي من أذنيّ، أشعر بالدغدغة، أرجوكِ ابتعدي عنهما، نعم هكذا جيِّد، لكن هذا الكريم بارد على وجهي، وما إن تحرِّكينه حتى يدفأ

تحت يديك. أنا متأكِّدة أنَّكِ وأنتِ تنزلين إلى أسفل عنقي مُحرِّكة كريم الفواكه هذا، لم تنتبهِي لصدري الضامر، ربَّما لأنَّنا متشابهتان يا «ماسي». لكن على الأقلّ عريسك، وإن خرج من حياتك، فربَّما ستكون لديه أسبابه الكثيرة ليفعل ذلك، ولكنْ على الأقلّ لن يكون من جملتها أنّ صدركِ ضئيل.

هذه الرائحة أعرفها جيِّدًا، ليمون وربَّما البرتقال. لا أدري لماذا قفز جسد عمَّتي زيَّانة إلى ذاكرتي الآن، وزاحم سكَّة الحديد والطفلين الفلبينيِّين؟ عمَّتي زيَّانة تبدو كخيش الأرزّ، صدرها وكرشها على مستوى واحد من الارتفاع، كانت كما لو أنّها فرّت من أفلام الكرتون. كاريكاتور مُضحك للغاية، تقوم بصعوبة وتجلس بصعوبة. وإذا وقعت. تصوَّري فقط يا «ماسي» ماذا يحدث لو أنَّها وقعت؟ كنَّا نضطرّ أن نطلب من الجيران أن يأتوا لمساعدتنا، كانت تطلب منِّي أن أقودها من يدها، كنتُ أستحي منها بالرَّغم من أنّ أخوتي لقَّبوها بـ «جونيَّة العيش». حتى هي باتت تعرف هذا اللقب، ولم تعد تركض خلفهم لتهشِّم رؤوسهم بالعصا ربَّما لم تعد تقدر.

ياااه يا «ماسي». يا لخفَّة يديكِ! نعم بالضبط هناك. على طرفيْ رأسي. يروق لي هذا الضغط. أنتِ تقبضين الآن على ذيل صداعي، وهو يسكن كقطّ أليف بينهما. استمرِّي، أرجوك. وأنا سأخبركِ عن عمَّتي زيَّانة. أفترض أنّ ما أفكِّر به الآن ينتقل إلى أصابعكِ ومنه إلى دماغكِ. أنتِ تعرفين بماذا أفكِّر، وإلَّا كيف أمكنكِ أن تتبعي صداعي بكلِّ هذا الاحتراف.

لنعد إلى عمَّتي زيَّانة يا «ماسي». قالت لي ذات مرّة سرّها،

وليتني لم أعرف سرّها. ربَّما لو لم أعرف سرّها لكنتُ حافظتُ على عريسي الثالث. لأكن صريحة: الأوَّل والثاني لم يُخبراني عن أسباب فسخ الخطبة ولي أن أتكهَّن أيّ سبب في الدنيا، لكنّ الثالث قالها لي يا «ماسي» صراحة، قالها من دون أن يخجل. «لا أريد أن أعيش مع امرأة بلا تضاريس». طبعًا أطلقتُ عليه الشتائم الوقحة، سيلاً منها ما كسرني أنّه العريس الثالث يا «ماسي». لم يكن وقتها الأوَّل لأحافظ على رباطة جأشي.

أنا الآن، أواظب على الرياضة وعلى الڤيتامينات، ولكنَّهما لا يكبران. عمّتي زيَّانة، الله يسامحها، هي السبب.

سمعتُ غليان الماء. لم أفتح عينيّ، ولكنْ شعرتُ بالبخار يتسلَّل إلى وجهي. يا الله، لماذا ابتعدت أصابعكِ الآن؟ جئتُ لكي أسترخي وأبعد الأفكار السيِّئة من رأسي. حسنًا يا «ماسي»، هذا جيِّد، ها أنت تستخدمين الملقط وتفتِّشين عن الرؤوس السوداء في وجهي، هذا مؤلم، لا تقتربي من أنفي، ها هي رغبتي بالعطس تتجدَّد، ها أنتِ تقتربين منِّي، يداك تحيطان بوجهي، وصدركِ الناتئ يلتصق بمؤخِّرة رأسي، ورائحة عطركِ الخاصّ تدوّخني الآن. أشعرُ بإغماءة قصيرة، ولكن نبشكِ المستمرّ عن الرؤوس السوداء يُوقظ انتباهي. تركتني. نهضتِ، بقيتُ وحدي تحت فوهة البخار. سمعتُ وقع قدميك وأنت تخرجين.

طيِّب والسرّ الذي أريد أن أخبركِ به؟ أين أنتِ؟

لم أعد أسمع سوى صوت الماء يبقبق في جهاز البخار، لا أستطيع أن أفتح عينيّ بعد أن وضعتْ «ماسي» عليهما قطنتين دائرتيّ

الشكل. حسنًا عزيزي البخار، يبدو أنَّك المكترث الوحيد لمصيبتي. إلى وقت قريب لم تكن مصيبة، كان خيارًا. صارحتني عمَّتي قائلة، بأنَّ صدرها كبير وأكبر من احتياجها، ومدعاة لضحك الناس عليها، لأنَّها كانت تلمسهما بصورة دائمة، وكلَّما كانت تلمسهما كانا يكبران. قالت لي بالحرف الواحد: «إن كنتِ لا تريدين أن يضحك عليك أحد لا تلمسيهما البتَّة».

أسمع صوت الباب. تندفعُ رائحة عطر «ماسي» قبلها. تُعاود يداها التأكُّد من أنّ كلّ شيء على ما يُرام. عزيزتي «ماسي». ما حدث بالضبط هو أنِّي توقَّفتُ تمامًا عن لمس صدري منذ أن كنتُ على مقاعد الابتدائيَّة، خوفًا من أن يُصبح ببشاعة صدر عمَّتي زيَّانة. تصوَّري أنّي تجاهلتُ وجود نهديّ. كأنَّهما ليسا هناك. كأنِّي لا أراهما وهما يبزغان ويتكوَّران ويغيِّران شكل فساتيني. أمرِّر الماء على كامل جسدي وأفركه جيِّدًا وأتجاهل الوردتين الصغيرتين. ألبسُ ملابسي من دون أن أصطدم بهما. ولم أشتر أيّ قطعة من «السوتيانات» التي تُضيّق الخناق عليهما أو تبرزهما. اكتفيتُ بالصدريَّات القطنيَّة. تصوَّري يا «ماسي» أنّي عندما أنام لا أضمّ يديّ إلى وردتيّ، بل أطلقهما

أعرف يا «ماسي» أنّ فضولكِ يحملك الآن على سؤالي: «ماذا بعد؟». ولا أدري كيف أقول ذلك لكِ. بالمناسبة، أنتِ أوَّل شخص أخبره بهذا السرّ، كما كنتُ الوحيدة التي أخبرتني عمّتي زيّانة بسرّها نعم يا «ماسي»، حصل ما أردته بالفعل، ولم تكبر وردتاي. ظلَّتا نتوءين صغيرين مُضحكين وغير ملائمين لسندريلَّا حقيقيَّة. اكتشفتُ متأخِّرًا فداحة إهمالي لهما.

تصوَّري يا «ماسي» أنّ كلّ محاولاتي في لمسهما والضغط عليهما الآن، لتدبّ فيهما الحياة، باءت بالفشل.

سكتت بقبقة الماء. أعرف ماذا يعني هذا جفّ الكريم على وجهي. نزعتِ قطعتيّ القطن من على عينيّ. وقعت عيناي على ابتسامتكِ. دعكتِ الكريم على وجهي بفوطة باردة جعلتني أرتجف من البرد. وضعتِ مرطّبًا برائحة كوكتيل الفواكه. تقابل وجهانا قلتِ بصوت عذب: «انتهتْ الجلسة».

قمتُ من على السرير. اكتفيت بالنظر إلى وجهي في المرآة. محمرًّا من كثرة الدعك. لبستُ عباءتي وشيلتي بارتباك، فيما كنتِ تمسكين بزمام ابتسامتكِ جيِّدًا أنقدتكِ عشرين ريالاً أعدتِ لي خمسة ريالات، وخرجت.

أنا امرأة تركض.   تركض بصورة مُفرطة في غرفة ضيّقة. عالمي صغير للغاية ومُغلق، لديّ كلّ شيء، بيت جيِّد، طعام نظيف، زوج مُحبّ. وقد يتساءل البعض عن حاجتي للتخلّي عن كلّ هذا   حصل ذلك عندما كنتُ فزعة، وقدمايَ لم تعودا تقدران على الركض.

ربيعة

التخلّي

إنّ ما فعلته مؤخَّرًا يبدو مُضحكًا بالتأكيد، لكنّي أفعلُ ذلك كلَّما تورَّطتُ بالقلق. أحرِّكُ ساقيّ الخبيرتين، وأركضُ بالقرب من فيض الضوء الخارج من السيَّارات التي تعبرُ بمحاذاة الطريق وبالقرب من مصابيح الإنارة في الشارع الداخلي. أقطعُ أشواطًا طويلة كعادتي، فكلَّما ركضتُ أكثر، انهزمتْ مخاوفي، أو على الأقلّ أحاولُ تصديق أنّ ذلك يحدثُ لي حقًّا.

لا أحد يستطيع تمييز صدري النافر، ولا جسدي البضّ في هذه الظلمة. أخترقُ المدينة النائمة بملابس رياضيَّة واسعة، واضعةً قبَّعة القميص الرياضيّ فوق رأسي. أمرقُ بين الشُبَّان الواقفين، فلا أستدعي التفاتهم، فالفتياتُ لا يجرؤن على الركض في ليل هذه المدينة الآمنة. إنَّهنَّ وقورات جدًّا ومحتشمات.

منذُ زمن بعيد وأنا أركض. أركض في حوش بيتنا. في فناء المدرسة. بالقرب من شارع الحبّ. أركضُ عندما أغضب وعندما

أفرح. ركضتُ لأوَّل مرّة عندما لم أتمكَّن من دفع حزني على موت أبي. ركضتُ، وركضت. قالت لي معلِّمة الرياضة بحماس: «لِمَ لا تكوني عدَّاءة المدرسة؟»، فصرتُ عدَّاءة حقًّا، وأحرزتُ الميداليَّات كأفضل عدَّاءة في مسقط. هذا ما كنتُ أفعله تمامًا، أركضُ لحضن أبي، أندفعُ وكأنّ ذراعيه تنتظرانني في آخر السباق. لكنَّ الجوائز لم تُرمِّم فقده أبدًا، ومع الوقت أصبحتْ لديّ أسباب كثيرة أركض بسببها، وليس أبي سوى أحدها على الأغلب.

لطالما كان رائد غير مُطمئنٍّ لركضي. الركض يخيفه. يجعله يعقدُ حاجبيه طويلاً جدًّا، ويصبحُ صمته أطول من اللازم. يحصل أيضًا أن يأكل أقلّ من اللازم، وينام أبكر من المعتاد. هكذا يعترض رائد على الأشياء التي لا تعجبه، بأن يتغيَّر، لا يضحك، لا يمزح، ويبدو الأمر وكأنَّنا ندخل إلى منعطف غير مأمون النهايات. أقول كعادتي: «ولمَ كلّ هذا!»، ثم أبدأ بالتخلِّي عن الأشياء التي لا يحبّها رائد.

أصلُ أحيانًا إلى حدّ الاشمئزاز بين ذراعيه والبُغض، وكلَّما حاولتُ، مجرَّد الشرح للمقرَّبين منِّي، تبدو أسبابي واهية للغاية، بل تدعو أحيانًا للضحك. إنّ أحدهم ما كان ليظنّ أنّ «عدم الاطمئنان» سببٌ كافٍ لتخلِّي اثنين عن بعضهما بعضًا.

أمّي تقول، لا يمكن أبدًا إلَّا أن أكون أنا المُخطئة. يكفي أنّه يحبّني، حتى وإن كنَّا نفعل ذلك بضجرٍ معًا. «إنّه أفضل من غيره»، هكذا تقول أمّي، وصديقتي ناهد تقول كلَّما أخبرتها عن شيء ما يتعلَّق برائد: «ماذا عن الوقار الذي يتحلَّى به؟»، ليصبح هذا أيضًا سببًا آخر جيِّدًا لكي لا أنهي حياتي معه. لكنَّهما من الأكيد لا تعرفان من عساه يكون رائد خارج هذا «الوقار»!

أشعر برغبة في الثأر، الثأر لشيء لا يمكنني تحديده بدقّة، ولكنَّه يُوجع قلبي، وعندما أركض يكون هنالك دومًا ما ينسلُّ مع تعرُّق جسدي، فيتضاءل حنقي.

قبل أشهر فقط، كنتُ أنظر إليه، تحديدًا إلى تلك البهجة التي ملأت روحه، وهو يمسكُ يديّ بين يديه. كان مُبتهجًا جدًّا. أكثر من اللازم. الأمر الذي أشعرني بالشكّ. لم يكن ذلك لسلامتي بالتأكيد، بل لأنِّي فقدتُ الطفل، إثر نزيفٍ حادّ وموجع. كنتُ أغالبُ الانقباضات الحادَّة أسفل بطني في المستشفى وأنا أسأله «ألا يزعجك شيء؟»، فقال لي وعيناه تبرقان بفرح لم يكن ليُخبِّئه على سبيل المجاملة: «أنا اليوم أفضل من أيّ وقتٍ مضى».

أركضُ الآن، وأحاول جاهدة ألَّا أتذكَّر آثامه الشرِّيرة. أرفعُ رأسي قليلاً لتأمّل الطريق الشاسع أمامي، إنّه بلا نهاية وبكثير من الانحناءات. أركض، كأنِّي أحاول التخلُّص من بهجته الغامضة التي ملأت رأسي فجأة.

لم أكن أرغب بأكثر من سرير صغير أضعه جوار سريري. سرير مزيَّن بأشرطة ودانتيل. أردته بلون محايد، وأردتُ أن أشتري خزانة تكون جوار خزانتنا، كنتُ سأضعُ فيها ملابس الصغير وفوط استحمامه وغياراته، خصَّصتُ رفًّا صغيرًا لأحذيته في خزانة الأحذية، بالتأكيد كان سيمشي يومًا ما، وسيتطلَّب الأمر أحذية للبيت وأخرى للنزهات.

لكنْ في ذلك اليوم. تحديدًا ذلك اليوم الذي قلتُ فيه، وأنا أضع البيض المقلي جوار المارتديلا وأصابع النقانق، بينما هو آخذٌ في تقطيع الخيار والطماطم، قلتُ وأنا أتحسَّس بطني الذي لم ينتفخ أكثر من حجم برتقالة بعد: «أيّ خزانة تظنّ. يمكن أن أفرغها برأيك،

لأضع فيها أغراض الصغير. أعني المراضع، وعدّة التعقيم، إنَّها في غاية الأهمِّيَّة للصغير، وسيكون لديه أطعمة سريعة التحضير أيضًا و. .». كان ضجرًا، ولا ينظرُ في عينيّ أبدًا تسارعتْ حركة يديه في تقطيع شرائح الخيار. ثم قال بشيء من الأسى: «لماذا لم تخبريني بتركِكِ حبوب المباعدة في الوقت المناسب؟». وجدتني أنفعلِ أكثر من اللازم وأنفاسي تتصاعد عاليًا: «ماذا تظنّ. لقد أمضينا ستّ سنوات ونحن نؤجِّل الأمر». قال بخيبة من دون أن يرفع رأسه عن شرائح الخيار: «كنَّا سعداء على الأقلّ».

بالتأكيد كنَّا سعداء. سعداء كما يظنّ كلّ المحيطين بنا، لأنَّنا نشبكُ أيادينا ببعضها بعضًا في الممشى المجاور للبحر، ولأنَّه يضعُ لقمة الطعام في فمي عندما يدعوني لتناول الطعام في الخارج. في كلّ المناسبات كان يحاصرني. يحاصرني تمامًا لكي لا أتمكَّن من محادثة الكثيرين، كان ذلك يثير لدى الفتيات تحديدًا ذلك الوهم، بأنَّنا لا نحتمل مجرَّد افتراقنا القصير عن بعضنا. الفتيات كنّ مغرمات به. أضف إلى كلّ ذلك جسده الرياضي وصدره العريض وطوله الفارع. إنّه كما لو كان منزوعًا من إحدى مجلَّات الموضة، أو من فيلم هنديّ بسبب سُمرته الفاتنة وكثافة شعر رأسه وصدره.

كنَّا وحيدين جدًّا، حتى إنّه لم يكن لأيّ خادمة أن تُطيق البقاء في منزلنا لأكثر من شهر أو شهرين، إنَّه مصدر فزع دائم، وتلك النظرات كانت كفيلة بقتل خادمة مسكينة. إنَّه غير راضٍ أبدًا عن كلّ ما يقمن به لأجلنا، كثير التذمُّر والشكوى. يحصل أن يسكب ما يُحضّرن من طعام في سلّة المهملات، أو يخرج الملابس من خزانته ويطلب إعادة كيِّها أو غسلها كان متوجِّسًا، وكثير الحنق لوجود شخص ثالث في شقَّتنا

دفعه الأمر لأن يهجرني، لم يكن يجرؤ على مجرَّد لمسي. قلتُ في نفسي: «التخلّي عن الخادمات أفضلُ من هذا النكد اليومي».

حصل ذلك مجدَّدًا، لدى معرفته أنّ في بطني كائنًا حيًّا كنتُ أدعوه لأن يضع يده على بطني، فيرتعشُ جسده خوفًا. منذُ ذلك الوقت، بدأتُ أعي جيِّدًا أنِّي لم أعد قادرة على رتق الحياة معه!

لم يكن رائد ليوطِّد أيّ علاقة جادَّة بالجيران. بل إنّه لم يتورَّع أبدًا عن أن يشتكي بجارنا الذي تحدثُ قدما ابنته الصغيرة صوتًا مزعجًا في الطابق العلويّ. لقد اشترى لها حذاءً خاصًّا ليُخرس صوت قدميها بل إنَّه اشترى سجَّادًا باهظ الثمن وفرشه في غرفة نوم والديها التي تعلو غرفة نومنا، ليكفّ ذلك الصدى المزعج، ولم يكن من جارنا إلَّا أن قَبِل هداياه بفرحٍ عارم، بل إنَّه كاد أن يتورَّط مع جارٍ آخر شاهده يتبوَّل على جذع شجرة في بيته المجاور لشقَّتنا، أقام رائد الدنيا ولم يقعدها. من حسن الحظَّ أنَّ الجار كان هادئًا ولم يُصعِّد الأمر.

بالنسبة لي، لم أكن لأفكِّر بعقد صداقات حقيقيَّة قبل أن أتحوَّل إلى سندريلَّا كنتُ أخشى خيبة الأمل، وأفضِّل مراقبة النساء من بلكونة غرفة نومي.

من حين لآخر، أسمعُ طرطقة شيء لا أميِّزه بدقَّة، أو ألمحُ قطًّا يفتِّشُ براميل الزبالة، فلا أعبأ به. أمضي في ركضي ولا أدري إلى أين أذهب. هذه المرّة سأركضُ إلى أن تخذلني قدماي.

رائد يحبّني، يحبِّني خفيفة الروح كفراشة، يُريدني مُبتهجة على الدوام، وأن لا أشتكي أبدًا، حتى إنَّه لا يُريدني أن أمرض، ففي تلك المرّات النادرة والقليلة التي كنتُ أمرض فيها، فإنَّ أهمّ ما يمكن أن يفعله رائد هو النبذ، والنوم في الطرف الأقصى من السرير. يقلُّ

الكلام بيننا، بل إنّه قد لا يتوانى عن عقد حاجبيه، وإطلاق ذلك الزفير المزعج من رئتيه. ورغم أنّه لا يتحدَّث حول أمر مرضي، إلّا أنّه يُشعرني بأنّي مُدَّعية، وأبالغ كثيرًا في البقاء في السرير وشرب الأدوية، قلتُ تلك المرّة أيضًا: «ولِمَ ادِّعاء المرض»!

يحبِّني رائد نحيفة. لا يريد لوزني أن يزيد عن الوزن الذي تعرّف عليّ فيه أوَّل مرّة. رغم أنّي كنتُ نحيفة لدرجة المرض، وكلّ من يراني الآن بكيلواتي الزائدة يقول لي: «تبدين كامرأة ناضجة»، ولكنَّه لا يزال يمرِّرُ الكثير من الإشارات المبطَّنة والصريحة والمحبطة أيضًا بشأن وزني. يتجرَّأ أحيانًا على إزاحة طبق الطعام من أمامي وكأنّني طفلة، لا تعرف ما الذي ينبغي عليها القيام به.

في اليوم الذي غامر برفع جسدي من فوق الأريكة على غير العادة، وأنا أشاهد أوبرا وينفري، وأذوّب قطعة كبيرة من الشوكولاتة التي أحبّ في فمي، شعرتُ وهو يحملني بنشوة جارفة، وظننتُ أنّي على موعد مع الحبّ، وإذ به يضعني فوق الميزان ويرفع سبَّابته عاليًا: «ثلاثة كيلوات زائدة مجدَّدًا. ألا يستدعي ذلك بعضًا من قلقكِ؟».

بكيتُ كثيرًا تلك الليلة. ليس بسبب الكيلوات الزائدة بالتأكيد. ولكنْ، لأنّي أشعر دائمًا وكأنّي دجاجة، قدرها أن تبقى مُجمَّدة في الفريزر، وبمجرَّد أن تخرج منه ستفوح منها رائحة سيِّئة. عليّ أن أبقى في هذا الفريزر اللعين، لكي لا يتغيَّر لوني ولا يتجعَّد شكلي، أو يطرأ عليّ ما يُفسد رائحتي.

أشعرُ بعينيه كمجسَّات مراقبة تفزع قلبي، إنّه لا يحتمل مجرَّد أن يرى زغبًا من الشعر على ساعديّ، أو خطًّا خفيفًا من الشعر فوق شفتي، لا يحتمل أظافري غير مقلَّمة.

إنَّنا نشتري العطور ذاتها التي تعوَّدنا عليها في فترة خطوبتنا. نسمعُ الأغاني ذاتها التي أحببناها من قبل معًا. بل إنّه يحبّ ذوقي القديم في فساتيني وقصَّة شعري. بينما أنا أشعر بمللٍ هائل من كلّ هذه الأشياء، ولا أرغب بشيء منها الآن، قدر رغبتي بتغييرها

تتباعد خطواتي، أضغط بقوَّة على أسناني، تلك العادة السيِّئة التي حذَّرني منها طبيب الأسنان، أقول في نفسي بغضب: «لكن ماذا كان سيحدث لو أنّ الدجاجة خرجتْ من الفريزر؟».

لطالما كان يقصُّ أجنحة الدجاجة من دون أن أنتبه، وعندما شعرتُ أنّه لا يمكن احتمال المزيد، وأنَّ زمن بقائي في الفريزر قد يطول إلى ما لانهاية، قلتُ له بعد أن نال منِّي متعته الآسرة تلك الليلة، وبعد أن أغلقنا مصباح الكوميدينو المجاور لسريرنا. تلك اللحظة التي خطَّطتُ لها، حيث انسحبتْ نظراته التي تُرعبني في العتمة. قلتُ له بهدوء قاتل: «ماذا لو تطلَّقنا!». لم يَصدمْ وجهي آنذاك سوى الهواء الساخن الخارج من رئتيه. كنتُ قد هيَّأتُ نفسي للمزيد، لكنَّه قال بهدوء: «لو خرجتِ يومًا من هذا البيت. لأيّ سبب كان. سأسكبُ البنزين فوق رأسي»، قال ذلك بجدِّيَّة تامَّة وبصوت عميق، لا مجال للشكّ فيه، ثم انزوى على الطرف الأخير من السرير ونام، تاركًا ظلال كلماته تعبثُ بي حتى الفجر.

عليّ أن أكون ككلّ شيء في بيت رائد. بالغة الترتيب، ولمجرَّد أن أكون شيئًا غير هذا، تحدثُ حساسيَّة مفرطة بيننا. حتى وإن لم يتكلَّم حول ذلك، كان وجهه ينمُّ دومًا عن رعب هائل من فكرة أنِّي أتغيَّر. ينقرُ بأصابعه الطاولة بتوتُّر، لمجرَّد أنّي أتحدَّث عن فكرة ما، عن شيء لم يكن مقترحًا بيننا من قبل، عن رحلة، عن أصدقاء جدد،

عن طفل. يااا. كم تؤلمني الآن فكرة أنِّي فقدتُ ذلك الطفل!

كانت هنالك مرّة واحدة ويتيمة فكَّرتُ فيها أن أجعل الأشياء على ذوقي، كما أشتهي أن أراها. أردتُ أن تكون كراسي الصالة مقابل النافذة الزجاجيَّة الكبيرة في الشقَّة، تلك النافذة التي تطلّ على الشمس والحديقة في آن. كان يبدو ذلك مُدهشًا وجذَّابًا، ولكن رائد لم يكن ليحتمل الأمر. تقاطعت يده العظيمة طويلاً مع جبهته، فور عودته من العمل، لم يكن ليحتمل الأمر حقًّا، نهض مرارًا وتكرارًا عن الكرسيّ، تنهَّد لأكثر من مرّة، ولم يهنأ له بال حتى أعاد الكراسي إلى وضعها السابق، وعدنا مجدَّدًا لنُعلِّق أعيننا بالجدران.

كنت ما زلتُ أركض، وأبتعد كثيرًا عن بيتي في طريق لولبيّ، وأرغب في طرده من حياتي، إنَّه يؤذيني حقًّا، حتى وإن بدت أسباب ابتعادي عنه تافهة، ولكنِّي لم أعد أستطيع البقاء أكثر.

رغبته عارمة بي، اشتياقه جارف، لكن ذلك الاحتضان الليليّ الجامح، لا يُسفر عن فرجة أمل صغيرة، وكأنّ حزنًا كثيفًا يمرّ بين شراشفنا كلّ ليلة. لم يحصل أن مدّ يده يومًا، ليسحبني من شعري، ولم يقل كلامًا نابيًا كما يحدثُ بين بعض معارفي، لم يحصل أن تعاركنا بالكلام. بالكاد كانت ترتفع أصواتنا، ولكنْ، ألا يبدو ـ كوني لا أشعر برغبة في رؤيته أو محبَّته ـ سببًا كافيًا لتركه!

تزوّجني وأنا عدَّاءة. كنتُ أركض وأركض، وكان أكثر ما أحصل عليه في حياتي هو التصفيق والميداليَّات وكلمات الإطراء، وعلى رفّ غرفتي في بيت أهلي الكثير من شهادات التقدير، وبراويز الصور الجماعيَّة مع الفرق التي تنافستُ معها. لقد أحبَّني وأنا أركض في النادي. كنتُ أشعر بحرارة عينيه وهو يراقبني في المضمار. كان

يُعلِّم الأولاد السباحة في النادي، وفي فترة الاستراحة يجلسُ وحيدًا ليُراقبني وأنا أتدرَّب. لم يكن عنده كلام ليقوله لي. فقط هي تلك النظرات، التي تمشِّطُ جسدي، فتربكني.

عندما أخبرتُ صديقتي ناهد عن الارتباك الذي يأكلني كلَّما نظر إليّ، قرصت وجنتيّ ذاهلة وقالت: «إنّه الحبّ يا عبيطة!».

وبينما كنتُ ألتقط المنشفة قال لي: «وجهكِ محمرٌّ أكثر من المعتاد!». قلتُ له: «تدرَّبتُ كثيرًا اليوم»، وبعدها بدأنا نتحدَّث، كان مهتمًّا، وعندما عرض عليّ الزواج في حوارنا الثالث، قالت أمّي، «وماذا تريد البنتُ أكثر من رجل كهذا».

في الشهر الأوَّل بعد زواجنا، تفاجأتُ أنّهُ أهداني آلة المشي المنزليَّة قائلاً: «يمكنكِ المشي هنا الآن. لا ضرورة بعد الآن للذهاب إلى النادي»، قلتُ له: «أنا أحبُّ المشي في مضمار السباق. أحبُّ الركض في مساحات شاسعة، أحبُّ أن..». قال لي غير مكترث بما قلتْ: «انظري هذا الجهاز يناسب المشي والركض أيضًا لن تشعري بالفرق».

لكنِّي كنتُ أشعرُ بالفرق. بفرق هائل جدًّا بفرق لم تشعر أمّي أنَّه يستدعي كلّ حزني ومبالغاتي. بعدها، قلتُ: «ولمَ لا أتخلَّى عن النادي!».

في البداية كنتُ مخبولة، وأشعر أنِّي لا أرغب بشيء أكثر من أن أرضيه. أنا البنتُ المدلَّلة، والتي لم تدخل إلى المطبخ في حياتها، قرَّرتُ فجأة أن أفعل شيئًا يجعله يخرج من رتابته تلك. حقيقة الأمر. كلّ ما كنتُ أرغب به هو أن يشعر ببعضٍ من الامتنان. كان ذلك سيكون سببًا جيِّدًا لأبرِّر بقائي بصحبته لأعوامٍ إضافيَّة.

فتَّشتُ في كتب الطبخ ومواقع الإنترنت. لقد طبختُ أطعمة لم تتصوَّر أمّي يومًا أنّي سأفعلها وكنتُ أجلس معه على مائدة الطعام، وأنتظر شيئًا ما. يُنهي طعامه كاملاً وينهض، وكأنَّ شيئًا لم يكن. حتى إنّ القطّ الذي أُلقي له ببعض فضلات طعامنا في الشارع، يومئُ برأسه شاكرًا عندما ألمحتُ له ذات يوم برغبتي بشيء من الكلام، القليل جدًّا منه، وضع ملعقته جانبًا، ثم قال: «النساء الجيِّدات يفعلن ذلك ولا ينتظرن شيئًا». لكنْ، وبعد زعلٍ طويل ونكد لم أربح منه شيئًا، قلتُ في نفسي: «ولمَ الامتنان!».

لستُ من النساء الجيِّدات. أريد ألَّا أكون كذلك الآن على الأقلّ. ها أنا أركض، وأقطع مسافات طويلة وبعيدة عن بيتي. تبدو لي حياتي مُقرفة للغاية. أنا لا أفعل شيئًا، أيّ شيء. أطبخ وأنظِّف وأنتظر عودته وحسب. بيتي بارد كقطعة ثلج، لا طفل يلعبُ فيه ولا أصدقاء يدخلون إليه.

حتى إنّه لا يمكنني تحريك أيّ شيء من موقعه من دون أن يصيبه ذلك بالهلع. عليّ أيضًا أن ألبس كأنِّي خارجة إلى حفلة، وأن يكون شعري مُرتَّبًا على الدوام. حسنًا لأكن مُنصفة. إنّه يُساعدني في رفع الأطباق عن الطاولة، ينظِّفُ المراوح التي لا تصلُ إليها يداي؛ وفي العطل ينظِّفُ كلّ الشبابيك، وفي المساء لا يكفّ عن ضمي إليه ونحن نشاهد الأفلام. ولكنِّي لا أشعر بالغبطة.

رائد بلا أصدقاء. حياته بين العمل صباحًا ونادي تعليم السباحة في الفترة المسائيَّة. زياراته لأهله نادرة، وغالبًا ما أكون برفقته. لقد طلب منِّي أن أتوقَّف عن الخروج مع ناهد. ظنّ أنَّها من أدخلت فكرة «الطلاق» إلى رأسي. لم أكن لأغامر لحظتها بالاعتراض. قال لي:

«ولماذا تحتاجين صديقة وأنا موجود!».

أصابني كلامه بالقلق حيال حياتنا معًا. أخواتي الثلاث يتحدَّثن دومًا أنّه لا يوجد حبّ في العائلة تخطَّى السنوات الستّ الأولى إلَّا حبّ ربيعة ورائد، وعندما أخبرتهم أنِّي أشتاق مجرَّد المبيت لليلة واحدة في غرفتي في بيت أهلي وهو الذي يمنعني من القيام بذلك، قلنَ لي وهنّ هائمات: «يا الله.. لو أنّ أزواجنا يحبُّوننا كما يفعل رائد».

تتراخى قدماي الآن.. يتحوَّل الركض إلى مشي سريع. أنفاسي تعلو وتهبط. أفكِّر في هذا الحبّ الذي لا يوفِّر بعضًا من الغِبطة.

كثيرًا ما كان يُبدي لي رائد أنّ أسهل شيء يمكن أن يحدث بيننا هو «التخلِّي». ولذا كنتُ أخشى التخلِّي كثيرًا. أخافُ من مجرَّد التفكير في أنّ ذلك يمكن أن يحصل حقًّا. لكنِّي مع الوقت، صرتُ أخشى البقاء برفقته، وأتمنَّى التخلِّي عنه. لكنِّي تفاجأتُ بردِّه عندما قال: «سأحرقُ نفسي».

كنتُ أمشي، وأتعرَّقُ كثيرًا جدًّا، أتعرَّقُ أكثر من أيّ وقت مضى، وكنتُ غير مكترثة أبدًا، شعرتُ لحظتها بأنِّي دودة، تحاول جاهدة فكّ شرنقتها، لأنّ جناحين نبتا لها، وإن لم تخرج في هذه اللحظة تحديدًا سيتكسَّر جناحاها الغضَّان.

أنظرُ إلى ساعتي. إنّه التوقيت الذي يعود فيه رائد من النادي. ها أنا الآن أبعد ما يمكن عن بيتي. ها أنا الآن غير مُهندمة، وشعري مُتعرِّق. لم يجهز العشاء الذي اخترته من المطبخ الإيطالي، لم أغسل صحون الغداء التي وضعتها في المجلى، ولم أنشر الغسيل، لم أنفض الغبار عن السجَّاد، لم أعطِّر الغرفة. كنتُ مشغولة بفكرة واحدة

وحسب: «ماذا لو نبتت لي أجنحة الليلة!».

أفكِّر مليًّا في جسدي الذي سيكمل الأربعين عامًا قريبًا حتمًا سوف أتغيَّر. لن أبقى دجاجة مُثلَّجة إلى الأبد. رائد يتغيَّر أيضًا، ظهر كرشٌ صغير رغم جسده المشدود، ولم يشعر بحاجة مُلحَّة لأن يخفيه عنِّي. إنّه حتى لا يصبغ الشعر الأبيض الذي بدأ يغزو فوديه. كما لم يخفِ تجاعيد صغيرة بدأت تظهر أسفل عينيه. لكنْ عليّ أنا أن أفعل. عليّ أن ألبس طاقيَّة الإخفاء، وأخفي الزوائد التي تؤذي مجسَّاته اللعينة.

تخفتُ حركتي أكثر، أشعر أنِّي ألهث. مرّ زمن طويل لم أركض فيه خارج آلة المشي المنزليَّة والسخيفة تلك. خطوط من الماء تمشي تحت قميصي بغزارة. قدمايَ لا تحملاني الآن. أجلسُ على الأرض وأتناولُ علبة ماء من حقيبتي. ألتقطُ أنفاسي بصعوبة. ومن ثم أدلقُ الماء إلى جوفي. جسدي المحمرّ يرتعش.

في هذه اللحظة، قلّبتُ نظري في الظلمة التي تحيط بي، والإضاءة الخافتة المتسرِّبة من الشارع الفرعيّ. دقَّاتُ قلبي بدأت تنتظم مجدَّدًا، أشعر أنِّي الآن أهدأ ما أكون. انسحبَ الحزنُ الهائل الذي كان يعبثُ بي، انسحبتْ كلّ الأفكار الشرِّيرة وتبخَّرتْ. لكن سرعان ما قفزت فكرة مجنونة إلى رأسي، فكرة جعلتني أنتصبُ واقفة، ومتحفِّزة للركض مجدَّدًا. «ماذا لو كان رائد يسكبُ البنزين على جسده الآن!».

يقول يوسف: «لا ينبغي للأمَّهات الجيِّدات أن يُخطئن!»، وأنا ببساطة لا أحبُّ بناتي. ينتابني في بعض الأحيان شعور بالمقت والكراهية. إنَّهنّ يسرقن كلّ شيء. يسرقنَ وقتي، قوَّتي وصحّتي، كما يسرقن أباهنّ منِّي.

أمَّا رائحة نانسي فتلك قصَّة أخرى.

تهاني

أكنسُ الرائحة جيِّدًا كلّ ليلة

في أفضل الأحوال، كان ينبغي عليّ أن أستيقظ في الخامسة فجرًا، فأنا أعرف أكثر من غيري في ذلك البيت أهمِّيَّة الوقت. أغادرُ سريري من دون أن أتبع نصيحة صديقتي حصّة حول ضرورة التأمُّل والتأنِّي قبل الصحو، ومن دون أن أزيح الستائر، ومن دون عناق صباحيّ لزوجي الذي يُعطيني ظهره كلّ صباح.

أغسلُ وجهي بالماء البارد، وأمرِّر الفرشاة على أسناني الصغيرة والمتراصَّة بسرعة ودقَّة في آن. لا أهملُ أسناني البعيدة ولا حتى لساني، وبأسرع من ذلك، أخلعُ قميص نومي الرمادي القصير بأطراف الدانتيل، لأرتدي مريولي الأصفر الطويل والمشجَّر بالورود الحمراء، والذي لا يتطلَّب منِّي أكثر من ربط الشريطة إلى الخلف. أرفعُ شعري من دون أن أكترث لثلاث شعرات بيض يُشاكسن سواد شعري. أمرِّرُ أصابعي فيه وأضع الشريط المطّاطي بخفَّة، فلا متّسع من الوقت لاستخدام المشط. أفعل كلّ ذلك في غضون ستّ دقائق، وكأنّ عفريتًا

خرافيًّا بشعًا يركضُ خلفي. آنذاك يكون زوجي قد غيّر وضعيَّة نومه لجهة أخرى .مكتبة الرمحي أحمد

أهرعُ راكضة إلى المطبخ. أتناولُ عُلب الطعام الثلاث، الورديَّة للبنت الكبرى، التي تفضِّل الجزر مع مشروب اللبن وسندويشات الجبنة. العلبة البنفسجيَّة للبنت الوسطى التي تُفضِّل الخيار والدونت مع علبة العصير وساندويشة النقانق. العلبة الأخيرة صفراء اللون للبنت الصغيرة التي تُفضِّلُ التفّاح وساندويشة البيض والجبن مع عصير الفواكه المُشكَّلة. عليّ أن أركِّز جيّدًا لقد سبق أن أخطأت، سبق أن عنَّفتني ابنتي الوسطى أمام أبيها، وقالت: «أمّي لا تفهم. إنَّها لا تعرف ماذا نحبّ، تضع لنا الجزر بدلاً من الخيار!»، يحتضنها والدها يوسف بمحبَّة هائلة، ويعدها بألَّا تخطئ أمّها مرَّة أخرى.

أغلي الحليب، وأسخِّن الخبز المجمَّد في الثلَّاجة. أنتهي من ذلك في أقلّ من عشر دقائق. أشعر بقليل من التذمُّر، لأنَّ اللحظة المُقبلة هي الأكثر سوءًا على الإطلاق. أصعدُ إلى غرفة بناتي الثلاث، ينتابني ذلك الشعور الذي أحاولُ دائمًا دفعه بعيدًا عنِّي. ذلك الشعور الغامض والسرِّي، والذي حدّثت عنه صديقتي حصّة، منذ أن أنجبتُ ابنتي الأولى، قالت حصّة: «إنَّ ذلك الشعور عاديّ وسينتهي». ولكن ذلك الشعور كان ينمو بداخلي ويتوحَّش، ولم أعد قادرة إلَّا على نفي الأمر أمام الصديقات، فلا ينبغي للأمّهات الجيِّدات أن يقلنَ ذلك صراحة.

البنات الثلاث عنيدات، ويغدو الذهاب للمدرسة والاستيقاظ الباكر واحدة من المهمَّات الصعبة التي ينبغي أن أقوم بها يوميًّا البنتان

الكبيرتان تذهبان إلى المدرسة والبنت الصغيرة تبقى في بيت جدَّتها لأبيها يستيقظن بنكد هائل، ويبدأن بالبكاء معًا، في سيمفونيَّة غير منتظمة الإيقاع، لكنِّي لا أصغي إليهنّ أبدًا. آخذهنّ الواحدة تلو الأخرى إلى حوض الاستحمام. أتأكَّدُ لأكثر من مرّة من درجة حرارة الماء قبل أن ينزلق على أجسادهنّ الناعمة، لمرَّتين في الأسبوع أستعمل الشامبو بدون دموع، فينسكبُ على شعورهنّ الناعمة متباينة الطول. وفي باقي الأيَّام، أكتفي بتمرير الليفة على الأجساد الثلاثة الطريَّة، يتناغم الصياح على نغمة واحدة ومن ثم يفترق. وقبل أن تنتهي سيمفونيَّة البكاء، أستغلّ الأفواه المفتوحة لأمرِّر فراشي الأسنان في الأفواه. أبدأ من البنت الكبيرة وأنتهي بالصغيرة. تمرُّ الفرشاة بدقَّة متناهية وسرعة فائقة على كلّ الأسنان حتى تلك البعيدة، وأتمكَّن من تحريك الفرشاة في حركات مستقيمة ودائريَّة، وعندما تتحرَّك الرؤوس والأيدي مُعلنة الرفض، فإنِّي لا أتورَّع عن مسك الأيدي وتثبيت الرؤوس إلى الجدار. إنِّي أفعلُ ذلك غالبًا، وأتمكَّن من تثبيت الأجساد الصغيرة بقوَّة مُلفتة، تدرَّبتُ عليها بشكل يومي، لتتمكَّن الفرشاة برشاقة من صفَّيْ الأسنان.

ألقي الفوط على الأجساد الثلاثة. تكون الكبيرة قد استسلمتْ وبدأت بتقبُّل الأمر. بينما الوسطى تغالبُ دمعها، والصغيرة ما يزال صياحها بكامل حيويَّته. وبحركة مدرَّبة، أبدأُ بدهنِ المرطِّب على أجسادهنّ إلى أن تصبح طريَّة كالهُلام، وأرشّ الكولونيا المُعطِّرة برائحة الليمون على أعناقهنّ، ومن ثم ألبسهنّ الثياب المكويَّة والمصفَّفة منذ مساء البارحة على الأريكة. أفعلُ ذلك وكأنِّي أتعامل مع مانيكان. أسحبُ الأيدي الصغيرة، وثم الأرجل، وهنّ ينشجن بالبكاء المتقطِّع.

أفعل ذلك من دون أن أتبادل معهنّ كلمة واحدة، ومن دون أن أنظر لوهلة لوجوههنّ متعكِّرة المزاج. أتركهنّ قليلاً ليعركن عيونهنّ. مصطفَّات إلى جوار بعضهنَّ بعضًا. يمنعهنَّ الكسل والبرد من التحرُّك أبعد من المكان الذي وضعتهنّ فيه. أكون آنذاك قد حضّرتُ سريعًا الكورن فليكس. أتذوَّق ما في المعلقة الأولى لأتأكَّد من درجة حرارة الحليب، ومن ثم أبدأ بالنفخ على كلّ لقمة أزرعها تباعًا في أفواه البنات، ورغم رؤوسهنَّ الرافضة وما تقوم به البنت الصغيرة تحديدًا من إلقاء الطعام خارج فمها مُتعمّدة، بينما البنتُ المتوسِّطة لا تكفّ عن ضغط أسنانها بقوَّة لتمنع دخول الطعام. بينما يحدثُ ذلك، لا تكون لديّ من حيلة سوى تلك الضغطة القويَّة والصارمة على الأيدي، والنظرة الحازمة التي ما تلبثُ أن تُرخي الأسنان المُلتحمة ببعضها بعضًا، وتسمحُ للطعام بالمرور آمنًا إلى المعداتِ الثلاث. ذلك الحزم غالبًا ما يُعيد الأمور إلى نصابها الطبيعي.

أنظرُ إلى ساعتي فيصدمني العقربان وهما يتراكضان نحو السادسة والنصف. أسدلُ عباءتي سريعًا على ملابسي، وأُلبسُ بناتي الثلاث الجوارب والأحذية. بالمناسبة، لم أعد أشتري الجوارب الملوَّنة، تلك التي بينها فروقات صغيرة في درجات اللون، لأنّي ارتكبتُ الكثير من الحماقات، فوق التي يتصوَّرها الجميع، عندما كنتُ أخلطُ بين الألوان، وتذهب بناتي بجورب ورديّ بورود صفراء، إلى جوار جورب ورديّ بورود بنفسجيَّة. لم يكن الأمر عاديًا. كان كارثيًّا بالطبع. الأمر الذي أربك يوسف وجعله يغضب، عندما اشتكتْ البنات لأبيهنّ أمر الجوارب. كلّ الجوارب الآن لونها أبيض، حتى وإن اختلطت ببعضها بعضًا، لم يعد هنالك أحد قادر على أن يلاحظ ذلك.

ما إن أخرج من البيت، حتى يفتحُ يوسف عينيه، يرقبُ الساعة بخمول، يرفعُ الفوطة إلى كتفه الأيسر ويدلفُ إلى دورة المياه. أحاول جاهدة أن أجد منفذًا يوصلني إلى أقصر الطرق للمدرسة. أقصر الطرق بين الحارات الضيِّقة. أحاولُ جاهدة ضبط إيقاع قلقي العارم، كلَّما تحرَّكتْ واحدة من البنات من مكانها البنت الصغيرة مربوطة في الكرسي مُحكم الإغلاق. إنّه مُحكم بالتأكيد، لقد تأكَّدتُ من ذلك لأكثر من مرّة. والأبواب مُغلقة جيِّدًا أوقف السيَّارة جانبًا لمرَّتين أو ثلاث لأتأكَّد من ذلك. لستُ موسوسة كما يظنّ الجيران، ولكنَّه حصل ذات يوم، وبعد أن أوصلتُ البنتين الكبيرتين إلى المدرسة، وبقيت البنت الصغرى وحدها في الخلف، حدث أن فتحتْ البنتُ الصغرى الباب وأنا في الشارع الرئيسي، وكان من حسن حظِّها أنّها مربوطة جيِّدًا في الكرسيّ المثبَّت بالسيَّارة. لقد اندلق الباب على مصراعيه، ودخلت كتلة هواء عالية، كادت أن تقتلع الصغيرة من مقعدها، وكدتُ أن أُشلَّ في تلك اللحظة. لكنْ من حسن حظِّي أن لا أحد يعرف بهذه القصَّة. أحاول جاهدة ألَّا أتذكَّرها. البنت الصغرى كانت أصغر من أن تحكيها لأبيها طار قلبي، وفي تلك الأثناء لم أشعر بأيّ قلق على البنت قدر خوفي من أن تصل الوشايات إلى يوسف.

يوسف رجل «بيتوتي»، يُقسِّم حياته بين العمل والبيت، فقد بتر كلّ صداقاته منذ أن أنجبنا ابنتنا البكر. إنّه لا يضرب ولا يشتم. إنّه فقط يُسدِّد تلك الضربات الموفَّقة دائمًا والتي تعرفُ تمامًا أين تصيب. يُذكِّرني دائمًا بأنّي: «لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن أكون أمًّا جيِّدة». الحقيقة، لم يحصل أبدًا أن قال يوسف هذه الجملة صراحة. ولكنْ بطريقة أو بأخرى كان هنالك ما يأكل قلبي.

عندما اندلق الحليب الساخن على ساق البنت البكر، وكانت وقتها ما تزال في شهرها الرابع، ارتعدتُ في مكاني، لحظتها تناول يوسف دلّة الحليب، وشرع يكسرها على بلاط الأرضيَّة بغضب لم أرَ له مثيلاً من قبل، ثم أخذ ابنته من حضني إلى المستشفى، وهو في حالة هستيريَّة غاضبة، ولم يطلب منِّي أن أرافقه. ولم أجرؤ على الاتِّصال به لمجرَّد الاطمئنان على الصغيرة. وعندما عاد والبنت نائمة بين يديه لم يقل لي شيئًا البتَّة. لقد سدّد ضربته الناجحة وحسب، وهذا ما كان يحدث دائمًا

إنّه لا يضرب فعلاً لا يشتم ولا يرفع صوته. إنّه يفعل شيئًا آخر، شيئًا بالغ الإيلام، ولم أكن قادرة على شرحه جيِّدًا لصديقاتي من قبل. صديقتي المقرَّبة حصّة لم تجد بدًّا من لومي، لأنّ كلّ القصص التي أرويها عن يوسف لا تبدو كافية لأشعر بالكراهية تجاهه، لا سيَّما وأنّ حصّة التقت به لأكثر من مرّة في المنتزه برفقة الصغيرات، وفي المتجر المجاور يشتري لهنّ الحلوى ويتبادل معهنّ الأحاديث. «إنّه بالغ التهذيب» تضيف حصّة: «لو قُدِّر لي يومًا أن أتزوَّج، فأنا أريد رجلاً كيوسف. أنتِ لا تقدِّرين النعمة».

البنتان الكبيرتان تتأمَّلان المارَّة من النافذة بهدوء. أتأمَّلُ وجهيهما في المرآة. «لقد كبرتا بسرعة»، أوقفُ السيَّارة. تنزلان برويَّة إلى المدرسة. البنت الصغرى تلوّح لأختيها. أساعدهما على ارتداء الحقيبتين على الظهر، ومن ثم على قطع الشارع، أتأكَّد لأكثر من مرّة من أنَّ علب الطعام موجودة في الحقيبة حقًّا، لكي لا أضطرَّ لقطع مسافة ضوئيَّة أخرى حالما تتّصل بي إدارة المدرسة وتبلغني أنّ إحداهما نسيت علبة طعامها الحقيقة، حدث ذلك من قبل ولأكثر من مرّة.

ورغم أنّي أفعلُ ذلك يوميًّا، إلّا أنَّ أحدًا لا يمكنه أن يُبعد عنّي شبح أفكاري، بتوقّع ما هو سيِّئ. تدلفُ البنتان إلى المدرسة بدون أدنى التفاتة أو تلويح خاطف، أو قبلة هوائيَّة كما يفعلُ بقيَّة الأولاد لأمّهاتهم.

أعودُ أدراجي للسيَّارة. عقربا الساعة لا يكترثان للهاثي ويستمرَّان في الركض. تبقى البنت الصغرى. أوصلها إلى بيت جدَّتها لأبيها تفتحُ الجدّة الباب لتدلف الصغيرة. أومئ برأسي للجدَّة عن بعد كما أفعل يوميًّا، وبالكاد ترفعُ الجدَّة يدها ردًّا على تحيّتي العابرة.

أحرِّكُ سيّارتي مجدَّدًا، لأدخل في عمق الزحمة المخيفة لأصل إلى الشركة التي أعملُ فيها، وأفني أكثر من نصف عمري.

لا أستطيع أن أحبّ بناتي الثلاث، بل لا أجدُ سببًا مُقنعًا لأفعل كلّ هذا لأجلهنّ. حاولتُ مرارًا وتكرارًا أن أدّعي أنّي ككلّ الأمّهات، ولكنّي لم أستطع ذلك، عندما قلتُ شيئًا من هذا القبيل لحصّة، التي لم تتزوَّج بعد ولم تنجب الأبناء ولم تجرِّب عاطفة الأمومة، ردَّتْ: «إنَّك تشعرين بالغيرة، لأنّ يوسف يهتمّ بهنّ وينشغل عنك. أنا متأكِّدة». أجبتها «لا لا أشعر بالغيرة أبدًا إنّني لا أشعر بالسعادة لكوني أمًّا لهذه البنات. إنّني منذ أنجبتهنّ وأنا في كابوس مزعج». تقول حصّة: «أنت بحاجة إلى علاج، لا توجد أمّ. أيّ أمّ. مجنونة أو عاقلة تقول مثل هذا الكلام. لا يمكن لأيّ أمّ أن تقول ببساطة لا أحبّ أولادي ولا أشعر بالحبّ».

تُعاود حصّة السؤال: «أرجو ألَّا تكوني قد قلتِ هذا الكلام لزوجكِ. سوف يحتقركِ».

لم يحصل أن قلتُ ليوسف يومًا أنِّي لا أشعر بمشاعر الأمومة، بل ينتابني في بعض الأحيان إحساس بالمقت. إنَّهنّ يسرقن كلّ شيء. يسرقنَ وقتي، قوّتي وصحّتي، كما يسرقن أباهنّ منِّي.

لا لا يمكن أن تكون حصّة على حقّ. ليست الغيرة هي من تتملَّك من قلبي. إنّني أصلاً غير معنيَّة بيوسف، ولا أحبّه أبدًا. حتى وإنْ كان كلّ الأهل والجيران قادرين على أن يُقسموا على المصحف أنّه زوج لا يتكرَّر، دمث وخلوق، ويلبِّي احتياجات الجميع، ولا يردّ أحدًا.

لقد قالت الجارة العجوز حرفيًّا: «إن كان هنالك شابّ في هذا الزمان لا يملك أن يرُدّ أحدًا. فهو يوسف». لقد حرث حقل زوجها الرجل العجوز في البلدة البعيدة عن مسقط، عندما سافر العامل الهنديّ وجاء موعد بذر الحقل ببذور تنمو لتتحوَّل إلى أعلاف جيِّدة للماشية. فعل ذلك بإخلاص لا مثيل له. لذا لا يملك أحد من كلّ الناس الذين يحيطون بنا إلَّا أن يقعوا في حسدي وحسد بناتي الثلاث عليه.

تزوَّجنا، دون قصة حبّ ودون لقاءات سرِّيَّة، ومن دون رسائل مُوقَّعة بأحمر الشفاه. حصل ذلك وفق النظرة الشرعيَّة بعيدة المدى، فأختُ يوسف وصفتني لأخيها، وأخي وصف يوسف لي، وتمَّت الموافقة دونما عناء يُذكر. لم يكن يوسف بطبيعة الحال مُتديِّنًا، ولكنَّه لم يكن أيضًا ليطلب شيئًا قبل أن يشعر أنّي أطلبه بقوَّة. ولم أكن طائشة أو راغبة كباقي صديقاتي بالذهاب إلى السينما ليضع يوسف يده فوق يدي بالخطأ المتعمَّد، أو نسير حُفاة على البحر، أو نتناول الطعام في مطعم بإضاءة خافتة. كنَّا معًا متَّفقين على أنّ الهاتف يكفي للكلام

بعد الخطبة، ولم يُبادر أحدنا طوال الأشهر الستَّة الأولى بطلب الخروج لنزهة قصيرة، رغم أنّ الأهل ما كانوا ليمنعوا ذلك، وخصوصًا مع رجل كيوسف. بل إنّ أحدنا لم يشعر أنَّ ذلك مُهمّ، رغم تحريض الأصدقاء والصديقات. كانت المكالمات بيننا غالبًا ما تدور حول يوميَّاتنا العابرة. «العمل. الزحمة التي نُصادفها في الشوارع. تغيّر الطقس، وقصص الأهل التي لا تنتهي». ونادرًا ما كان أحدنا يُرسل للآخر رسالة، كتلك التي يتبادلها المخطوبون عادة. لا أذكر أنّ أحدنا تطرَّق يومًا لكلام من قبيل الاشتياق والحبّ والولع ذاك الذي كانت تتغامز عليه الصديقات. لم يكن الأمر أنّي أدَّعي «الثقل» كما قالت حصّة. الأمر كان أبسط من ذلك. لم أكن أشعر يومًا أنّي محتاجة لقول ذلك.

كنَّا نبدو معًا على درجة عالية من الانسجام والاتِّفاق. ولم يخدش هذا الانسجام أيّ شيء. حتى بعد زواجنا، بقينا كغريبين في بيت واحد. يجمعنا السرير ليلاً وتفرّقنا الحياة نهارًا. الأمر الذي أضيف لرصيد حياتنا بعد الزواج أنَّنا لم نعد نشعر معًا بضرورة الاتّصال ببعضنا بعضًا، ولا ضرورة للكلام حول الطقس أو الزحمة أو مصاعب الشغل. كنَّا متأكِّدين أنَّ ذلك ترف زائد. نبتسم لبعضنا بعضًا ونتناول الطعام سريعًا، وقلّما نسهر معًا على فيلم مشترك.

كنَّا مختلفيْن حقًّا، ولكنَّ ذلك لم يخدش انسجامنا المثير للغبطة. يوسف يُفضِّل الاعتناء بالقطّ السيامي الذي اقتناه من مزاد خاصّ للقطط على موقع بالإنترنت، كما يعتني بحديقة المنزل، وبحوض أسماك الزينة. إنّه نظيف ومرتَّب، ويفضِّل أن يقضي فترة ما بعد الظهر في تنظيف سيَّارته، أو تقليب تربة الحديقة. بينما أعود من عملي مُتأخِّرة

لأخرج ليلاً للسهر مع الصديقات أو التسوُّق.

كنَّا سعداء، رغم اختلافنا، ولكن ثمَّة ما تغيَّر بعد مجيء البنات الثلاث في سنوات متتالية وقصيرة، لقد ترافق وجودهنّ مع اعتلاء وجه يوسف لنظرة لم تكن مألوفة من قبل. نظرة عنيفة، بمرور الوقت بدأتُ أفهم مغزاها لقد كانت كفيلة لأن أشعر بقليل من وخز الضمير.

الحقيقة أنَّ البنات الثلاث هنّ اللواتي جعلننا نشعر بفداحة اختلافنا. على سبيل المثال: يظنُّ يوسف أنّ الحياة تبدأ عندما يفتح باب منزله ويحضن بناته الثلاث. بينما الحياة بالنسبة لي، كسندريلّا تحديدًا، تبدأ في اللحظة التي أغلقُ فيها باب بيتي لأفكِّر بمكان جيِّد للسهر مع صديقاتي اللانهائيَّات.

كنتُ قليلة القلق على بناتي الثلاث، لأنَّ نانسي خادمة لا يمكن أن تتكرَّر أبدًا. إنَّها بالغة اللطف، ولديها قدرة هائلة على ترويض البنات. إنَّهنّ يأكلنَ جيِّدًا بصحبتها ويشربن الحليب. بل إنّ نانسي لا تدَّخر جهدًا في مشاركتهنّ الغناء وحفظ الدروس. فمن حسن الحظّ أنّ نانسي مُتعلِّمة ومُهذَّبة وبالغة الترتيب أيضًا، ومنذ أن دخلت بيتنا قبل ستّ سنوات، لم يُسمع لها صوت أو حسّ. كانت تفعل كلّ شيء بدقَّة بالغة وتقبع في غرفتها المجاورة للمطبخ كالريشة. لستُ كالأمَّهات المتشنِّجات بالتأكيد، ولا أبالغ بتوهُّم المخاطر التي يتوهَّمنها فالأمّهات يُقرفنَ حياتهنّ بالقلق المريض، وأنا لستُ من تلك النوعيَّة إطلاقًا

ولكنْ هنالك ما تغيَّر في ليلة من الليالي. لم أكتشف أنّ نانسي تضربُ بناتي على كلّ حال، ولم تكن تضع القاذورات في الطعام كما

صوَّرت لي بعض الصديقات، ولم تكن تخفي عشيقًا خلف باب المطبخ، أو تجرِّب قمصان نومي لتلتقط بها صورًا فاضحة. ببساطة لقد عدتُ متأخِّرة من أحد الأعراس، وبينما كنتُ أصعد إلى غرفتي كان يوسف يخرجُ عاريًا إلَّا من مئزره الأبيض من غرفة نانسي، وقتها تأكَّدتُ أنّ هنالك خدشًا هائلاً أصاب آخر ورقة توت سقطت بيننا. لم أبكِ ليلتها ولم أعنِّفه كما يحصل في الأفلام، وهو أيضًا ما كان ليبرِّر ما حدث. لقد حدث وانتهى الأمر. بل إنّي وإلى هذا اليوم لم أتحدَّث معه عن تلك الليلة، وكأنّها لم تحدث حقًّا

الحقيقة، بكيت تحت دشّ الماء لأكثر من مرّة، لكي لا يلتقط أحدهم صوتي. لا ينبغي للبنات والأهل ولا الجيران ولا لأيٍّ كائن من كان أن يعرف شيئًا عن تلك الليلة. اكتفيتُ فقط بالاستغناء عن خدمات نانسي من دون تبرير الأسباب لأحد.

أسمعُ كلّ يوم صديقاتي وهنّ يعلِّقنَ على قصص مُشابهة: «لو أنَّها لم تخرج لكي تسهر، لو أنَّها آتت زوجها حقوقه في الوقت الذي يشاء، لو أنّها لم تهمل نفسها. لو أنّها. لما حصل الذي حصل».

لم تكن الشكوى لأحد ذات فائدة آنذاك، فكلّ ما كنتُ أريده في تلك اللحظة هو أن يختفي وجه نانسي من بيتي. وبكثير من اللياقة، وافق يوسف ونزل عند رغبتي بذلك. الأمر المزعج أنّ البنات شهقن بالبكاء، بكين كثيرًا عندما علمنَ أنّها ستذهب. إنّ خروج نانسي كان أشبه بالجحيم. لحظتها تأكَّدتُ أمام هياج بناتي الصاخب، أن لا شيء يربطني بذلك البيت. البيت يتهاوى على رأسي. وكان يوسف هناك بالقرب منّي تمامًا يرقبُ سقوطي بشماتة. يرقب الدويّ الهائل الذي

يعتمل في قلبي، ويبدو بالغ البراءة والنبل.

لم يكن بإمكاني أن أوقفُ بكاءهنّ لأربعة أيَّام متواصلة، ولم أكن قادرة على إقناعهنّ بضرورة تناول الطعام وغسل الأسنان والدروس والنوم الباكر. لقد نمنَ متلاصقات في غرفة نانسي، وكان يوسف يتفرَّج كعدوٍّ ولا يفعل شيئًا البتَّة. إنّه يسدِّد تلك النظرة الخاصَّة والعميقة في آن، تلك النظرة التي تقول دائمًا: «كم أنتِ أمّ فاشلة». تلك النظرة التي تحدثُ ثقبًا عميقًا جدًّا ولا يُرى، تلك النظرة كانت تشبه إلى حدّ بعيد الرمّة، التي تأكلني من الداخل قطعة قطعة، فلا أكاد أشعر إلَّا بذلك الانهيار الغامض والتفتُّت المدوّي لروحي.

الآن، أنا أفعل كلّ شيء وحدي. يوسف لا يساعدني، لا يمدّ يدًا لن أطيق وجود خادمة جديدة في بيتي. أحضّر الطبيخ المملّ، أقوم بالتنظيف المقرف، أغسل ملابس الجميع وأقومُ بكيِّها. ولكن لا يظهر في عين أحد منهم أيّ إحساس بالامتنان.

أتذكَّر تلك الأوجاع التي جعلتْ روحي مُعلَّقة في سقف الغرفة، وأنا أنجبُ ابنتي البكر. طلبتُ لحظتها الحياة فلم أجدها. طلبتُ الموت فلم أجده. وعندما خرجتْ من بطني وانزلقتْ بين ساقيّ، قرَّرتْ الممرِّضة كطقس معروف كما يبدو أن تتركها على بطني. ذلك الجسد الهلامي اللزج المُمتلئ ببقايا الدم. الجسد الدبق، وعندما حاولتُ أن أضع يديّ عليها، وأن أضمّها بحنوٍّ إليّ ـ رغم القرف الذي شعرتُ به بادئ الأمر ـ لم أجد في عينيها الصغيرتين أيّ إحساس بالامتنان في الخروج إلى الدنيا. لم تكن تلك الصغيرة ممتنَّة لنضالٍ عبثيّ استمرّ لتسع ساعات مُضنية. ولم تفكِّر تلك العينان الباهتتان بأنّها

كانت حملاً ثقيلاً، لم تفكِّر بكلّ ذلك التقيُّؤ اليومي والعصبيَّة التي أصابتني والفحوصات، والتقارير السيِّئة التي حصلتُ عليها من الشركة التي أعملُ بها. لم تفكِّر تلك العينان بالمشقَّة التي تكبَّدتها الحلمة اليُسرى المتشقِّقة، كانت تدمي طوال الليل، وكانت الطفلة بالغة الجوع وقليلة الشفقة بي، أنحني طوال الليل لأسدّ نهمها الشديد. ألا يبدو ذلك أنانيًّا!

لم أكن وقتها لأظنّ أنَّه يمكن لأحدنا أن يهدر أيَّام عمره لأجل كائن آخر، يريد أن يرضع وأن يتبرَّز وأن يتقيَّأ وأن يبكي بدون أسباب واضحة. يريد أن ينام نهارًا، وأن يصحو ليلاً كخفّاش عنيد، وأن يشتكي كثيرًا من الغازات في بطنه. بل إنّه أشدُّ ذكاءً ممّا نظنّ، فيعرف جيِّدًا كيف يفسد الخروجات التي نخطِّط لها طويلاً، بادّعاءات غير واقعيَّة. كما يُفسدُ الفساتين المكويَّة وباهظة الثمن بالتقيُّؤ عليها. عندما أتذكَّر السنوات الأولى لأعمار بناتي، فأنا لا أتمكَّن من ربطها بشيء أكثر من القرف. وعلى الرَّغم من أنّ حصّة لم تكن متزوَّجة آنذاك، إلَّا أنَّها قالت بمحبَّة: «يبدو هذا هو أجمل ما يمكن أن يحصل لأيّ امرأة».

كنتُ مُستلبة، فوقتي لم يعد لي. وكان يوسف على عكسي تمامًا يُبالغ في الاعتناء بالصغيرة، وكأنَّها قطّ سيامي من نوع آخر كان مستعدًّا لأخذها بين ذراعيه، وأن يحضّر لها الحليب الدافئ، وفي بعض الأحوال لا يتورَّع عن تعبئة سطل الماء، ليجلسها فيه ويسمعها تكركر فرحًا، ويستمرّ لعبهما طويلاً، لكنَّه لا يفعل ذلك، هكذا ببساطة، ككلّ الآباء. كان يمرِّر رسائله، أنا متأكِّدة، وحدي أفهم رسائله، يبدو للناس رائق المزاج طيِّب القلب، بينما الحقيقة أنّه يريد

دائمًا أن يقول لي كم أنا فاشلة! أنا أعرفه. إنَّه يُدمِّرني. إنَّه ليس كما يبدو للجميع. إنَّه يُدمِّرني كلّ يوم. يلعبُ مع بناته، ويخرجُ معهنّ في نزهة. لكن لم يقل لي يومًا: هيَّا لنذهب في نزهة. لم يقل ذلك منذ وقت طويل.

حصّة لا تُجيب غالبًا على تذمُّري. بل إنّها تظنُّ في أعماقها أنّي أبالغ، أو ربَّما تظنّ أنّي أفعل ذلك لأُبعد عين الحاسدين عنّي، هذا أوَّل ما كان يخطرُ على بالها تحديدًا. بل إنّ حصّة لم تُصرِّح حتى الآن برأي. أيّ رأي حول خيانة يوسف لي، وإن بدت مُتفاجئة، إلَّا أنّي أكاد أكون متأكِّدة من أنّها تعذره، تعذره وتظنّ أيضًا في أعماقها أنّ يوسف لا يستحقّ امرأة مثلي بالغة التآكل وقليلة الخبرة.

من يدري! لعلَّها ـ أعني حصّة ـ تتساءل بينها وبين نفسها بحسرة لاإراديَّة حول ما إذا كان يوسف يفعلُ شيئًا من ذلك مع أخريات. أعني الخيانة. ربَّما يفعل. لا أستطيع تبرئته تمامًا. لكن مجرَّد أن تفكِّر حصّة بذلك أشعرُ بوجع غير متوقَّع. أشعرُ بوخزة حادّة تشعلُ الرّمّة مجدَّدًا لتأكل بيتي. في كثير من الأحوال، لا يتعلَّق الأمر بي أو بيوسف. إنّه على نحو خاصّ يتعلّق بحصّة.

حسنًا إنّ أقلّ ما يمكن أن أقوله عن بناتي الآن إنّهنَ وقحات، وهنّ لسن كذلك مع الجدَّة والأهل وحتى مع الجيران ورفيقات المدرسة. إنَّهنّ بالغات التهذيب كأبيهنّ. بالتأكيد هو من يحشي رؤوسهنّ بالكثير عنّي. إنّه يفعل ذلك لكي لا ينكشف، ليحافظ على صورته الناصعة. الجيران والصديقات والأهل يتحدَّثون كثيرًا عنه. الرجل الذي لا يتكرَّر ولا يشبهه أحد. بارّ بوالديه إلى حدٍّ لا يُصدَّق،

ولديه بنات كفلقة القمر. مُهذَّبات جدًّا، وهو بصحبة عائلته دائمًا. لا يسهر، لا يشرب، ويمتلك ابتسامة بالغة الحنوّ. لم يتمكَّن أحدٌ منهنّ من التبصُّر في نظراته التي تأكل روحي وأمانيَّ، كما لا تكفّ حصّة عن قول هذه الجملة بأشكال مختلفة: «كم أغبطكِ. إنَّه يكاد لا يخرج من البيت. ويبدو عاطفيًّا إلى حدّ غير معقول. أنتِ محظوظة يا تهاني».

لكنْ ما فائدة هذا الرجل الذي يجلسُ طوال الوقت في البيت، ونحن لا نتبادل الكلام. القليل منه وحسب. فقط ذلك المتعلَّق بالبنات. المتعلَّق بما يرغبن وما ينبغي أن أفعل لكي يُصبحنَ سعيدات. إنّه لا يكفّ أبدًا عن توجيه النصائح، بكلّ ما ينبغي أن أفعل لأجلهنّ. عن الأنشطة التي يمكن أن يفعلنها بعد المدرسة، وعن المكان الذي يمكن أن يقضين فيه عطلة نهاية الأسبوع. وكيف يمكن أن نرتِّب جدولنا لفترة الامتحانات. بل إنّ يوسف كتب جدول أعمالنا المتعلّق بالبنات، وألصقه على باب الثلَّاجة بواسطة الفواكه البلاستيكيَّة والممغنطة. ومنذ ذلك اليوم وحياتي تنهض وفق جدول غبيّ ملصق بالثلَّاجة.

لم يسألني قطّ عن الفيلم الذي أحبّ أن أشاهده في السينما، ولكنَّه باستمرار يسأل بناته حول هذا، ولم يفكِّر يومًا أن يعرف المطعم الذي أرغب بتناول الطعام فيه. بل إنّه وفي يوم عيد زواجنا، طلب من البنات أن يخترنَ المطعم، ورغم معرفته الأكيدة بقرفي من مطاعم الفاست فود، إلَّا أنّه ووفقًا لرغبة البنات دعاني إلى «الماكدونالدز» التافه!

هذه الكائنات الصغيرة ترتِّب حياتي على مزاجها، ولا يمكن لي

أن أسجِّل أيّ اعتراض، إنّه يتدخَّل دائمًا بصفته الرجل الذي يعرف كلّ شيء. الغريب حقًّا أنّه لم يسبق أبدًا أن اتّسخت البنات بصحبته. ولم تقع إحداهنّ يومًا. ولم تتعثَّر ولم تفلت يومًا شريطة شعر إحداهنّ. فقد كان يتأكَّد من ذلك لأكثر من مرّة. ولم ينس يومًا أن يصطحب الملابس الاحتياطيَّة لهنّ حتى بعد أن كبرنَ، والمحارم الورقيَّة الناشفة والمبلَّلة على حدّ سواء لأيّ ظرف كان. كلّ الحوادث المتوقَّعة والمفزعة كانت غالبًا ما تحدث عندما يكنّ بصحبتي. لكن أقسى ما في الأمر أن تعود الفتيات الوقحات ليخبرنَ والدهنّ بكلّ ما حدث، إنَّهنّ يبالغن كالعادة، وهو حريص دائمًا على تسديد الأسئلة الصائبة والدقيقة، وهنّ ثرثارات يخبرنه بكلّ شيء.

ربَّما لن يصدِّق أحد أنّي إلى الآن لم أضرب بناتي قطّ. أيّ نوع من الضرب قد يُتصوَّر. إنّني لم أرفع صوتي عليهنّ. إنّها قواعد يوسف المنزليَّة. إنّه لا يسمح بذلك. هل يمكنني القول إنّني أشتهي ضرب بناتي ورفع صوتي ككلّ الأمّهات اللواتي أشاهدهنّ؟ أشتهي أن أقرصهنّ إلى أن تحمرّ أوراكهنّ أو خدودهنّ؟ إنّني أشتهي ذلك، وعندما قلتُ أمام زميلاتي ذات يوم ونحن نجلس في استراحة العمل، قهقهنَ ضاحكات، وساور الشكّ بعضهنّ بأنّي مجنونة.

الحقيقة أنّني لا أملك هذا الحقّ. سأقول شيئًا أكثر سوءًا من ذلك. «منذُ أن غادرت نانسي بيتنا وأنا أشعر أنّي أحلّ محلّها ببساطة. يوسف لا يريد أكثر من ذلك. خادمة مُطيعة ومُهذَّبة. تفعل كلّ شيء بإتقان وحذر. لا تضرب. لا تصرخ، وتلتزم بحدود مساحتها، وفي المساء يمكن لهذا الزوج الطيّب أن يتسلَّل من غرفة بناته بعد أن يكون قد قصّ عليهنّ القصص إلى غرفتها، ويقضي بقيّة الليل معها. إذًا ما

الفرق بيني وبين نانسي. لا شيء البتّة»!

لستُ متأكِّدة إلى الآن، حول إذا ما كنتُ قد سامحتُ يوسف أم لا ولكنْ في اللحظة التي طلب منّي أن أكون إلى جواره في السرير، لبّيتُ رغبته، رغم أنّ ذلك كلّفني الكثير من البكاء تحت دشّ الماء لاحقًا. فما كان ينبغي عليّ أن أفعل ذلك في الليلة نفسها التي التصق فيها بجسد نانسي. وربَّما تندهشون لو قلتُ لكم إنّي طوال الليالي التي لحقتْ تلك الليلة، كنتُ أشمُّ رائحة نانسي في يوسف. من شعره إلى أخمص قدميه. وأبدو في تلك اللحظات بالغة الحميميَّة كمن يفتِّشُ عنها فيه. ذلك اللهاث الأحمق دفعني لأن أغيِّر أساليبي، ومن حيث لا أدري، دفعتْ تلك الأساليب يوسف هو الآخر لأن يصبح مولعًا بي.

في كلّ مرّة كنتُ أعاهد نفسي ألَّا أفعل ذلك مجدَّدًا، فتقفز رائحة نانسي من فمه ومن شعره وصدره وقدميه وبين فخذيه، تقفز تلك الرائحة، فأجَنّ، وأجدني غير قادرة سوى على ملاحقة الرائحة. فينتشي يوسف أكثر. يُزاحم وجه حصّة رائحة نانسي. هي أيضًا تريد أن تترك رائحتها هنا، ولكنّي لن أسمح أبدًا بحدوث ذلك. ها أنا أكنسُ الرائحة. أكنسُ الرائحة جيِّدًا كلّ ليلة.

لكنْ، وما إن ينتهي الصخب الحميميّ، حتى تفلتُ الرائحة منّي. فأقفزُ بجسدي المتعرّق مُمسكة بدمعي الغزير، لألهث طويلاً تحت دشّ الماء.

نزل المطر في موسمه وراح الزرع ينمو على مهل، والأفلاج تجري بقوَّة، والمواشي وبقيَّة الحيوانات على ما يُرام، لم تمرض بأيٍّ داء غريب كسنوات مضت، وقد طمأنهم الطبيب البيطريّ الجوّال على أحوالها، فكروش إناثها تحمل غنائم لقاحات مُثمرة من تيوس وديكة وثيران شبقة على الدوام. والمخطوبون تسير أحوالهم على ما يرام، وليس بينهم من يُفكِّر بفسخ الخطبة لأيٍّ سبب كان.

القرويُّون ضجرون، يفتِّشون عن حديث يجعل لسهراتهم معنى. لذا، كان ما قاله الهنديّ «مُهن» عن سعد كافيًا لفرقعة القرية رأسًا على عقب!

ريّا

ليس له قلب فلَّاح

لم يكن موت الخِصْب عاديًّا، كان سببًا كافيًا لكي أنتقل مع زوجي وأولادي إلى مسقط، وأن أبتر كلّ ما يربطني بقريتي التي أحببت. كان حادثًا قلب حياتنا رأسًا على عقب، بعنا البيت الكبير والمزرعة بثمن بخس، وغيّر الأولاد مدارسهم، وتغيَّرت جاراتي من حولي، بينما لم يتغيَّر سعد. قلتُ بيني وبين نفسي: «ليس له قلب فلَّاح».

سأدلفُ الخمسين بعد أيَّام معدودة. التجاعيد قليلة في وجهي قياسًا بقريناتي اللواتي أكملنَ حياتهنّ في القرية، بعيدًا عن بذخ الكريمات الاصطناعيَّة. ولا أدري لماذا في مناسبة كهذه، أتذكَّر قول جدّي حول «أنّ خروج الفلَّاح من أرضه يُطفئ بريق عينيه». لا أحد يمكنه أن يُنكر نضارتي الآن، واهتمامي المُستمرّ بجسدي كلّما تقدَّمتُ في العمر، إلَّا أنِّي أُدرك في مكان خفيّ من روحي أنّ الفلَّاحة التي بداخلي مُنطفئة.

يداي طريَّتان، وليستا على ما كانتا عليه من قبل في حقول القرية المتجاورة، وأكثر ما أفتقده الآن هو إدراك الزمن، حتى وإن كنتُ أضعُ على حائط الصالة والمطبخ وغرفة النوم أقراص ساعات مضبوطة. جدِّي ليس شاعرًا، ولكنَّه قال ذات يوم: «إنّ الفلَّاح الحقيقيّ يضبط زمنه على وقع جريان الأفلاج، وعلى المعرفة الدقيقة بدوره في السقي، يضبط إيقاع روحه على ساعة المطر في موسم الزرع، وعلى الخوف منه في مواسم الحصاد. يضبط إيقاعه بالنجوم وتحوُّلات القمر».

لم يكن جدِّي يظنّ للحظة أنّ رجلاً بدويًا سيخطف قلب حفيدته. رجلاً بدويًا متنقِّلاً في حياة عابثة لا يحكمها الزمن ولا الترقُّب. رجلاً بلا بقعة يقرّ فيها، كأيّ صعلوك متطفِّل، يكون حيث يكون الكلأ والماء. قال لي جدّي: «ليس لهذا الرجل قلب فلَّاح». وكنتُ أجد ألغاز جدّي تلك مدعاة للضحك. اختار لي سعد بيتًا في قريتي وسكن معي، وبقي قلبه راكضًا خلف بعيره النافرة ومعزاته البرِّيَّة الشاردة فوق هضبات بعيدة.

لم يتغيَّر شيء في حياتي لردح من الزمن. كلّ ما هنالك أنّي كنتُ أكتشف في كلّ مرّة أنَّ قلب سعد ليس قلب فلَّاح، ولم يكن ذلك يُضير حياتنا كثيرًا على كلّ حال. نزرعُ ونحصد، ونربِّي الماعز والدجاج في الحظيرة، وأدلِّل بقرتي كما أفعلُ تمامًا مع أولادي الذين جاؤوا تباعًا وبلا فواصل زمنيَّة.

أمّا حادثة موت الخِضْب. فهي الحدث الأهمّ في حياتي. خصوصًا وأنَّ الجيران عرفوا بالقصَّة، كما عرفتْ بذلك الجارات

المستعدَّات للنهش تمامًا. ما كان ينبغي لأحد أن يعرف، ولكن أنباء القصّة وصلت للقرى المجاورة، ولم يعد سوى مسقط ستر وغطاء لنا لقد بعنا البعير والماعز والدجاج وحتى العجل الصغير أيضًا بربع الثمن، وشرع بعض الجيران في التحدُّث عن النجاسة، تحديدًا نجاسة الأثاث، فلم يعد له ثمن معقول، لذا فضَّلتُ ألَّا يُباع الأثاث وأن يُنقل معنا إلى مسقط. كان هنالك من أطلق إشاعة أخرى إلى جوار قصّة موت الخِضْب، إشاعة عن شكل العجل الغريب. «فربَّما يكون. أستغفر الله. ربَّما». ومنذ أن خرجتْ هذه الجملة مبتورة من فم أحدهم، وهي تتَّسع في سياقات كثيرة ولا حصر لها

لا يُكملون الكلام. إنَّهم يستغفرون وحسب، وكلَّما جاؤوا على هذه القصَّة، يهزُّون رؤوسهم ويتلفَّتون ويتهامسون في حضور الأطفال، ربَّما كانت تحصل مثل هذه القصَّة بوفرة في أماكن أخرى من العالم، وربَّما هنا أيضًا بين الفلَّاحين أنفسهم. من يدري؟ ولكن هل كان ينبغي أن أُقتلع من جذوري شأني شأن أيّ فطر أو عشبة سامّة، فقط لأنّ الخِضْب ماتت لمثل ذلك السبب؟

لقد انكشف السرّ، وسَرَت الحكاية في الهواء. في وقت كانت القرية بحاجة إلى قصَّة ما لكي تتسلَّى، لم يكن هنالك ما يمكن أن ينشغل به الفلَّاحون سوى قصَّة من هذا النوع، فالمطر نزل في موسمه والزرع ينمو على مهل، والأفلاج تجري بقوَّة، والمواشي وبقيَّة الحيوانات على ما يُرام، لم تمرض بأيّ داء غريب كسنوات مضت، وقد طمأنهم البيطري الجوَّال على أحوالها، فكروش إناثها تحمل غنائم لقاحات مُثمرة من تيوس وديكة وثيران شبقة على الدوام، والمخطوبون

تسير أحوالهم على ما يرام، وليس بينهم من يُفكِّر بفسخ الخطبة لأيّ سبب كان.

القرويُّون ضجرون، يفتِّشون عن حديث يجعل لسهراتهم معنى. لذا كان ما قاله الهندي «مُهن» عن سعد كافيًا لفرقعة القرية رأسًا على عقب.

أتذكَّر مجدَّدًا قرار جدّي الذي ما كان أبدًا ليفكِّر بدخول عامل آسيوي إلى مزرعتنا ليصبح مصدر أخبار لأهالي القرية، وكان كثيرًا ما يشعر أنَّ ذلك مصدر عارٍ لأيِّ فلَّاح لا يمتلك الجرأة لأن يحافظ على تاريخ سلالته. وبغض النظر عمّا قاله الهندي «مُهن»، وكيف نقله إلى أن وصل إلى المطوَّع الذي يُؤذِّن للصلاة ويصلِّي بالناس جماعةً في المسجد الصغير، بغض النظر عن ترقُّب البعض لزلَّة صغيرة توقعُ البدويّ سعد الذي لا يقربُ الصلاة في مواقيتها، وأكثر من ذلك فقد شوهد لأكثر من مرّة يشرب المُنكر، إلَّا أنّ أحدًا ما كان يملكُ دليلاً كافيًا، فهو بدويّ حريص، يحسبُ تحرُّكاته وأفعاله إلى أن وقع. وقعةً بلا نهوض.

بغض النظر. فقد اقترح أحدهم إعدام الخِصْب، لذنب ارتكبه سعد، كان ذلك الأمر صعب التصديق، وقد ملأ قلبي بالهمّ والأسى، غير أنّه، وقبل الاتِّفاق فيما بينهم على موضوع إعدام الخِصْب، حدث أن وجدوها في اليوم التالي منتفخة وميِّتة. لقد ماتت بالأسباب الغامضة نفسها التي ماتت لأجلها أمّها من قبل.

يا للقصَّة البعيدة التي قطعت جذور علاقتي بالقرية! لكنَّ الناس لا تنسى. سيبقى موت الخِصْب حكاية دسمة، سيحكيها الأجداد لأبنائهم

وأحفادهم من بعدهم، رغم أنّه مرّ أكثر من عشرين عامًا منذ حدوثها. لكنَّ الشيء الوحيد الذي لا يزال ينغِّصُ عليّ حياتي، هو ما قالته الجارة العجوز، عندما مسكت يديّ وشدَّت عليهما بقوَّة، وانزوت بي جانبًا وقالت لي: «لا تمنحيه نفسك بعد اليوم. لا يجوز يا ابنتي. امكثي معه لأجل أولادك وحسب». كان ذلك هو أكثر ما دمّر حياتي. منذ موت الخِضْب.

هم لا يتذكَّرون على وجه الدقَّة من الذي سمّاها أوَّلاً، لكنَّ الجميع بمن فيهم الأهل والجيران لم يتوقَّفوا يومًا عن مناداتها بـ «الخِضْب». جاءت الخِضْب. ذهبت الخِضْب. أكلت الخِضْب. حدث ذلك عندما ولدت في موسم الخصوبة والمطر الغزير، وعلى غير العادة، كاد سقف الزريبة أن يسقط من الرعود والبروق المتراقصة في تلك الليلة العجيبة. رفضتُ بأيّ حال من الأحوال أن أترك بقرتي وحيدة، رغم أنَّ زوجي سعد حذّرني من البقاء خارجًا في طقس كذاك، فلم أحفل لكلامه، ولم أرجع أدراجي إلى الغرفة لتدفئة الفراش كما يطلبُ منّي مرارًا. جلستُ لأكثر من ثلاث ساعات لا أدري ماذا عساي أفعل، وبقرتي تئنّ من وجع مخاض صعب، فينفطر قلبي! لقد استشعرتُ موعد ولادتها، عندما لاحظتُ أنّها امتنعت عن تناول الطعام منذ الصباح. قلتُ في نفسي هذه علامة من علامات الولادة، لكنّ سعد ما كان ليرحِّب بدخول البقرة إلى بيته حتى وإن خسرها وجنينها في طقس سيِّئ كذاك، رغم أنّه ولأسباب مماثلة كان سيدخل بعيره أو يصنع لها غرفة آمنة كما فعل مؤخَّرًا فهي تُدرّ الذهب كما يقول، بل إنّه لا يتورَّع عن النوم قربها عندما تشكو مرضًا ما

فضَّلتُ أن أبقى إلى جوارها إلى أن تبلَّلت ثيابي والتصقت

بجسدي المُمتلئ والناتئ. فلم يكن السقف سوى زور النخل المحزومة بحبال الليف. انتابني البرد في عظامي، وشعرتُ أنِّي غير قادرة على التحكُّم باصطكاك أسناني. شعرتُ في لحظات لاحقة أنِّي سأنهزم وأعاود التدثُّر بالبطَّانيَّات الغليظة قرب سعد. لكنَّ شيئًا ما كان يمنعني. لعلَّه إخلاص من نوع ما، أو ربَّما فضول الولادة، أو شيء خفيّ، لم أكن أعلم أمره حتى تلك اللحظة على الأقلّ.

رقدت البقرة على جانبها، ثم تضاعفت انقباضات عضلات بطنها. بقيتُ أرقب السوائل الساخنة وهي تخرج من فتحة الحيا خرجت الأرجل الأماميَّة، تبعهما الرأس الصغير. ثم سرعان ما انزلق ذلك الكائن في حضني، فانبثق سيل من الدفء لكلِّ أوردتي، وانتشيتُ بفرحٍ خاصّ لم أشعر به طوال إنجابي لأبنائي الخمسة. كانت الحرارة جارفة، حرارة الحياة الجديدة التي تخلَّقتْ في حضني. الحضن الأوَّل. نظرتُ إلى العينين، الحدقتين الواسعتين، ونظرتْ العِجْلة الصغيرة الغضَّة إليّ كمن يتعرَّف على أمّه. ومن دون أن أعرف السبب، وجدتني أهربُ بالعجلة الصغيرة «الخِضْب»، هربتُ بها قبل أن تلتفتُ البقرة الأمّ لتلعق صغيرتها، وقبل أن تفتح العجلة الصغيرة فمها لتلتقم ثدي أمّها كان المطر ينسكبُ من دلاء السماء، وكنتُ أتشبَّثُ بالعِجلة الصغيرة؛ كان الأمر كما لو أنّي احتضنُ مدفأة في ليلة بالغة البرودة.

وقبل أن يستيقظ أحدهم على الجَلَبة التي أحدثتها، وقبل أن ينتبه سعد لضربات قلبي المتسارعة، كنتُ قد وصلتُ إلى مدخل البيت. نظَّفتُ العجلة الصغيرة بخرقة من ثيابي، حاولت العجلة جاهدة أن تغالب ضعف قدميها. كنتُ حريصة للغاية، وكأنَّما أخشى أن أثقب طراوة الحياة الأولى.

كنتُ مأخوذة بذلك اللون الترابي المائل للصفرة، وعندما حرَّكت الخِصْب رأسها بحثًا عن ثدي أمّها، ألقمتها زجاجة حليب ابني الصغير. وظللتُ إلى جوارها أمسِّدُ جسدها إلى ساعات الفجر الأولى، مُنبهرة بمدفأة الجسد المُشْعِر، وكأنَّ حطبًا إلٰهيًّا جعل لتلك الليلة الماطرة أكثر من معنى.

في صباح اليوم التالي، وجدتُ البقرة الأمّ وقد تصلَّبتْ وماتت. قال سعد مُتفاجئًا: «يبدو أنّ صعقة من البرق أصابتها أو لربَّما أكلت مشيمتها هيه. ريّا هل أبعدتِ المشيمة عنها». لم أجد جوابًا لأقوله، أنا لا أتذكَّر شيئًا عن أمر المشيمة، كنتُ مأخوذة تمامًا بسحر الخِصْب، وفي أعماقي، لم أكن قادرة على تفسير فرحي بموت البقرة الأمّ. كلّ ما استطعتُ قوله: «لقد عوَّضنا الله بأفضل منها».

أجلس لأرضع الخِصْب الحليب الذي أشتريه لها خصّيصًا من المتجر المجاور، أضعها فوق ركبتيّ، وأبالغ في تقصّي مواطن دفئها الخبيئة. أقضي وقتًا طويلاً في الحديث إليها ولأنّ الخِصْب لم تعرف أمًّا أخرى غيري، فقد صدّقت كما يبدو أنّي أمّها. كانت تسير خلفي، وتحصد حسد الدجاجات وعجول القرية، وتأكل بشراهة كلّ ما أضعه لها.

منذ أن جاءت الخصب وأنا مُنكفئة، الجارات أطلقنَ عليّ لقب «غريبة الأطوار»، عندما اقتصر وقتي بين أعمالي المنزليَّة والحقل والحظيرة وعجلتي المفضَّلة. قلَّصتُ خروجاتي إليهنّ، فتناقل الجيران لأكثر من مرّة أنَّ ريّا تودع أسرارها في قلب الخِصْب.

أنا لم أجرؤ يومًا على قصّ أيّ حكاية عن نفسي أو عن زوجي أو

أولادي، وكانت حياتي سرًّا لم يتمكَّن أحدهم منه، وهذا أكثر ما كان يثير غضب الجارات، فكيف يدلقنَ حكاياتهنّ أمامي ببساطة وتلقائيَّة، حتى تلك المسائل بالغة الخصوصيَّة، بينما تبقى قصصي وسعد سرًّا محكمًا، وليس لديّ سوى جملة واحدة تزيد الجارات غيظًا: «ليس في حياتنا ما يُحكى».

منذ تلك الليلة، أصبحت الخِصْب جزءًا من العائلة. الصغار يلعبون معها وكأنَّها أخت لهم، لكنَّها كانت تنمو بسرعة غير متوقَّعة، حتى إنّ رجلاً عجوزًا قال: «إنّ ما يجعل الخِصْب تكبر أسرع من عجولنا هي الأسرار التي تقولها ريّا». مع الوقت، أصبح اللعب معها خشنًا جدًّا. ذات يوم، بركتْ فوق الصغير حتى كادت أن تخنقه. قلتُ بعد أن وبَّخني سعد: «كان ذلك عفويًّا». دافع الأطفال عن الخِصْب، ولم يسمحوا لأبيهم أن يُعيدها للحظيرة.

كلّما شعرتُ بالحزن، حكيت للخِصْب عن شيء ما. تمشي خلفي وتصغي إليّ، وتحرِّك عينيها بإشفاق، لطالما استشعرتُ أنّ الخِصْب تفهم ما أقول وتحفظُ قصصي في مكان أمين، بل إنّي لو حصل وأن بكيت في انفعال ما أيّ انفعال كان، فإنَّ الخِصْب لا تدَّخر دمعتها القريبة جدًّا من عينيها، فأجد في ذلك السلوى والراحة، ولطالما كان تمرير يديّ على جسد الخِصْب الطريّ أثناء غسلها بماء الفلجَ، أو عناقها في لحظات ضعف تعبر بي، لطالما تكفَّل ذلك بإخماد نيران وحشتي.

في الوهلة الأولى، شاهد الهنديّ مُهن سعد وهو يمتطي الخِصْب كما يفعل مع بعيره عادة، ولكن مع قليل من التركيز، شاهد شيئًا آخر

بالغ الدقَّة. عرك مُهن عينيه. لكنَّ المسافة كانت بعيدة للغاية من النخلة التي اعتلاها مُهن ليشرِط أطرافها الزائدة في مزرعة المطوّع التي يعمل بها، وبين فناء بيت سعد وريّا. لكنَّه على الأغلب رجّح أن يكون ذلك هو سعد. إذ لا يمكن أن يكون أحد الأطفال، وبأيّ حال من الأحوال لا يمكن للخِصْب أن تُقاوم ريّا بتلك الشراسة. في الواقع، لم يسبق للخِصْب أن قاومت يومًا أحدًا من الناس، لقد تربَّت منذ يومها الأوَّل بينهم، ربَّما تكون أوَّل عجلة شاهدتْ التلفاز في القرية، وشربتْ الحليب المُبستر، وجلستْ فوق الأريكة والبسط النظيفة، وقضتْ حاجتها في الفناء الخلفيّ، وقد استخدمتُ روثها في تسميد شجيرات الحوش. لقد دفعت الخِصْب لأكثر من مرَّة، كرة الأولاد الطائشة إلى مرمى الملعب المحدَّدة ملامحه بأحذيتهم الصغيرة. كان الأولاد في بيت خالتهم، وكنتُ أنا كما يبدو، وكما تقول الروايات، أطعمُ دجاجاتي التي قرَّرتْ أن تبيت فوق أغصان «الأمبا»، فلم أعد أطال لحمها الشهيّ.

كلّ ما استطاع مُهن من تلك المسافة البعيدة أن يُدركه، هو مقاومة الخِصْب الشرسة، ومحاولتها لدفع جسد أحدهم بعيْدًا عنها، على كثرة احتكاكها بالناس، وألفتها معهم، وعلى كثرة ما لعبت مع صغارهم وتجاورت مع أجسادهم، إلَّا أنّها يومًا لم تستشعر خوفًا من هذا النوع. لقد أدرك مُهن بحسّه الهندوسيّ الفعل المشين، وشعر أنّ هنالك ما يخدشُ معتقده، ويأكل قلب آلهته، فنزل طائرًا من على النخلة، جاذبًا أذن المطوّع إلى شفتيْ الحكاية. لكنَّ ذلك الهمس المنخفض، سرى في هواء القرية والقرى المجاورة كالعدوى، وكأنَّهم وجدوا أخيرًا معنًى للسهر ليلاً، ولتقليب الجمر تحت القهوة، لقد قلّبوا

القصَّة على ظهرها وبطنها، وكان طعمها يختلف في كلّ مرّة تُقال فيه. حصل ذلك بعد أن أنجبت الخِصْب صغيرها الأوَّل قبل أسابيع قليلة من هذه الحادثة.

لقد أبعدتُ المشيمة التي خرجت بعد ساعات قليلة من الولادة، لكيلا تتكرَّر قصّة البقرة الأمّ، وتأكَّدتُ من تطهيرها بالماء والملح، بل استعنتُ بالبيطري الجوَّال ليطمئنّ قلبي عليها، فاستعادتْ الخِصْب عافيتها بسرعة بعد الولادة لتوفّر الطعام والماء النظيفين.

لكنَّ الخِصْب كانت مأخوذة بالكائن الجديد الذي رُزقت به، تُباعد بين ساقيها بفطرة ربَّانيَّة لتسمح لصغيرها برضعها، وكأنَّها تخاف عليه من الحليب المُبستر مجيء الصغير جعل الخِصْب تفضّل البقاء في الحظيرة، مستعيدة حياتها الطبيعيَّة بين قريناتها. إنَّها تلعق صغيرها وتنحني عليه، ولم تعد تلتفت كثيرًا لي، بل إنّ عينيها ما عادتا تتلألآن إلَّا لصغيرها الجديد، ولم يعد لديها من الوقت ما يكفي، لتمشي خلف حكاياتي.

ربطتُ الصغير بعيدًا عن أمّه فكاد أن يجنّ جنونها، ظلَّت الخِصْب تهرول وتهرول كالمجنونة، ففككتُ قيد الصغير وأعدته إليها، فدسَّتْ الخِصْب رأسها تحت عنق صغيرها بدلاً من حضني وإبطي، فأكل الحزن كلّ قطعة منِّي. لم تعد كسابق عهدها تطمئنّ للمساتي المارّة فوق الأماكن الأكثر دفئًا وسخونة منها

لقد ماتت الخِصْب، وكأنَّها علمتْ بما قاله المطوَّع الليلة الفائتة: «تُعدم الخِصْب، ويُطرد سعد». ماتت بدون أسباب واضحة، رغم أنّ مُهَن ظلّ يؤكّد لهم أنّ موتها ليس عاديًا أبدًا الأطفال وحدهم من

تأثَّروا وبكوا دون انقطاع، عندما سحبها خمسة من الهنود أمام صغيرها إلى رأس الشارع العام، لكي تمرّ البلديَّة في الصباح الباكر، لتأخذها إلى مكان مجهول لا يعرف عنه الصغار شيئًا؛ ارتفع خوار العجل الصغير وحركته البطيئة في قيده المتين. لكن من كان يظنّ أن تخرج الخِضْب بتلك الصورة المُهينة من القرية التي عبرتها كأيّ طفل ودود!

لم يدافع سعد عن نفسه ولم يعترف بشيء. لقد كان الرحيل هاجسه الحقيقيّ، أمَّا البقاء في تلك القرية فلأجلي ولأجل الأولاد، لم يكن راغبًا بالتبرير أيضًا، وأنا لم أفضِّل فتح موضوع كهذا معه ولا مع كلّ السائلين عن ملابسات ما حدث. لكن أكثر ما أزعجني أنِّي لم أجد دمعة واحدة قريبة من عينيّ لأودِّع بها الخِضْب!!

لم يكن سعد لينتظر الكثير منِّي، ولم تكن مسقط التي نزحنا إليها سوى محطَّة صغيرة لرحيل شاسع يُطارد فيه شبقه، كما يطارد الفوز في سباقات الجِمال، عندما ينساب جسده خفيفًا في الهواء، وقدماه الصلبتان الجسورتان تقفان بثقة في تلك السرعة الجنونيَّة. في أحيان أخرى، يتسلَّى سعد بصقوره المحلِّقة فوق بُسط الصحراء الشاسعة كقلبه، يراقبها وهي تنهش غنائمها الهشَّة، وينتشي لانتصارها اللذيذ. لا يمكن للبدويّ أن يمتلك روح فلَّاح، هذا الأمر بات مؤكَّدًا، فالبدويّ تنبتُ أجنحته في الترحال والمسافات، ويموت ما إن يقرُّ به المقام كأيّ فلَّاح بائس يزهد بالدنيا في انتظار مواسم المطر والخضرة.

لم أعد أفتقده كثيرًا كما حصل في السنوات الأولى، لم يعد حضوره مُلحًّا عليّ طوال العشرين عامًا التي قضيتها في مسقط، منذ أن صددته وأوصدتِ أبوابي في وجهه أخذًا بنصيحة المرأة العجوز، وبعد

محاولات صغيرة منه تكاد لا تذكر. حتى عندما أحاول الآن جاهدة عصر ذاكرتي ومخيِّلتي لتذكُّر محاولاته تلك ليتقرَّب منِّي، أجدها غائبة عن ذاكرتي، ممسوحة تمامًا، كأنَّها لم تكن. بل إنّه ربَّما لم يحاول أصلاً!

عليّ ألَّا أنكر أنّي حاولتُ استدراج سعد إلى البيت بالتحجُّج بالأولاد واحتياجاتهم، وبالعيد الذي يمرُّ بائسًا عليهم، وبالنفقة أيضًا، لكن تلك المرّات كانت قليلة جدًّا. يأتي سعد ويجلس على عَجَل ولا يضع عينيه في عينيّ، وسرعان ما يفرّ كالمخنوق. بالتأكيد، ليس لديه ما يخجل منه. إنّه بدويّ، لكنَّ الفلّاحة التي هي أنا، أصبحت سيِّدة من سيِّدات المدينة، ولم تعد تعرف نفسها، كما لم تعد تهذي بالقرية ولا بدجاجاتها وعجولها وديكتها، ولا بحقلها وبرسيمها كما فعلتُ في السنوات الأولى للرحيل.

لقد انطفأت القرية في عينيّ كما قال جدّي، فتحرَّرتُ منها، كما انطوت صفحات الفضيحة، الناس ما عادت تذكر أشكالنا الآن. ومن الأكيد أنّ المرأة العجوز التي أسدت لي بتلك النصيحة، ماتت منذ زمن طويل!

إنّ كلّ ما أهجس به عميقًا ويوجعني الآن، ويعذّبني، هو تذكُّر الخِصْب التي ذهبت دون دمعة وداع واحدة، الخِصْب التي أخذت معها السرّ، وملابسات ما حصل في الليلة الأخيرة، وما لم يبصره «مُهن» جيِّدًا تلك الليلة.

تسهرُ أمّي مع أليخاندرو وتجلبه لأحلامها السريريَّة، بينما يُعلِّقُ جارنا أبو عدنان صور آنا كريستينا خلف ثلّاجة المشروبات، ليتلصَّص عليها بين الفينة والأخرى كلّما انقطع الزبائن. وأنا من حيث لا أدري كنتُ أحبّ مريم، وأحبُّ اللهو المُدهش في عينيها، فتنة الأكاذيب التي لا تنطفئ ولا تهدأ، والهُبل الجامح واللامحدود في علاقتها بالأشياء.

مريم قالت: «نحن لا نكذب، نحنُ نتجرّأ وحسب، وأنا صدَّقتها»، وتجرَّأتُ على أشياء ما كنتُ لأفعلها في قلعة أمّي الحصينة.

عليا

أليخاندرو وآنّا كريستينا

«اسألي أختي شيخة. أعرف أنَّكِ لا تُصدِّقين. شيخة ستخبركِ أنّ ذلك حدث حقًّا». هكذا قالت لي مريم بانفعال واضح، لذا كان ينبغي عليّ أن أفوّت باص المدرسة، لكي أتمكَّن من الالتقاء بشيخة أخت مريم التي تدرس في الفترة المسائيَّة، بينما ندرسُ نحن في الفترة الصباحيَّة. أعرفُ أنّ ذلك سيُعرِّضني لعتبٍ هائل من أمّي، لكنَّ مريم كانت مُصرّة أكثر منِّي، رغم أنّي لم أكذِّبها للحظة. كنتُ فقط أشكِّكُ فيما تقول، لأنّه بدا لي مُدهشًا وغير واقعيّ تمامًا.

كانت شيخة تقفُ في الطابور، تحديدًا في الصفّ الثالث جهة اليمين. ارتبكتْ ما إن شاهدتني أنا وأختها مريم نقترب منها: «هيّا يا شيخة قولي لـ عليا أنّ أليخاندرو وآنّا كريستينا يعيشان معنا في البيت نفسه». احمرَّتْ وجنتا شيخة خجلاً، ثم أومأتْ برأسها مؤكِّدة ما قالته أختها مريم. أعادت مريم القول: «قولي يا شيخة لعليا لدينا حوض سباحة، ومن البلكونة نطلُّ على حديقة جميلة. قولي لها يا شيخة،

أرجوكِ. إنّ أليخاندو وأنّا كريستينا يقضيان إجازتهما في بيتنا».
أومأتْ شيخة برأسها مجدَّدًا من دون أن تضع عينيها في عينيّ أو تنبس ببنت شفة.

تصرخُ بنا المعلِّمة المصريَّة، «بنات الفترة الصباحيَّة. اخرجن من هنا بسرعة». تقافزنا أنا ومريم مُبتعدتين. مريم تشدُّ على يديّ وتركضُ بي خلف المدرسة، «هل صدَّقتِ الآن. أرجوك قولي لي». كنتُ لحظتها أفكِّر بضرورة أن نلتحق بباص المدرسة الثاني، وإلَّا فسوف تقلقُ أمّي على تأخُّري كثيرًا، كما أنّه لم يكن لديّ في حقيقة الأمر ما أقوله لها، أكثر من ذلك الاستغراب الذي يمرقُ في تقاسيم وجهي.

كنتُ مندهشة وحسب، وأشعرُ باضطراب شديد ومغص في معدتي، فأنا عادة لا أفعل شيئًا. أيّ شيء أبعد ممَّا ترغب أمّي وتعرف. لم يكن لديّ سرّ. أيّ سرّ. فأنا ابنتها البكر والوحيدة، بعد أن فقدت أمّي فُرص الإنجاب بقطف رحم أجنَّتها بعد ولادتي مباشرة. لم أفهم لماذا فعلوا ذلك، كما لم أفهم أيضًا لماذا تناءى أبي مع زوجة أخرى وأطفال جدد لا نراهم ولا نعرف عنهم أيّ شيء.

أردفتُ حقيبتي على ظهري وركضتُ نحو الباص، بينما ركبتْ مريم الباص الآخر الذاهب إلى الطرف الآخر من القرية. كادت أنفاسي أن تنقطع من شدَّة الركض، بالكاد انتبه السائق لي. المقاعدُ مُعبَّأة حتى آخرها، لذا توجَّب عليّ أن أبقى واقفة إلى أن نصل إلى البيت.

يهتزُّ جسدي يمنة ويسرة وأنا أُمسك بالمقبض الحديديّ المُعلَّق بالباص، لأحمي جسدي من السقوط، كنتُ أفكِّر بمريم وبالقصَّة

الغريبة التي حكتها لي. هل يمكن لأبطال المسلسل المكسيكيّ أن يكونا ضيفيْ والدها حقًّا! إنّها تحكي أشياء غريبة طوال الوقت. كنتُ أغبطها لأنَّها ستعود إلى البيت وستلعب مع أليخاندرو وأنّا كريستينا، ومن يدري، فقد تتناول معهما الغداء. من الأكيد أيضًا أنّهما سيراقبانها وهي تحلُّ واجباتها المدرسيَّة، وقد يساعدها أليخاندرو بحلّ واجبات اللغة الإنجليزيَّة، ولكنَّه لا يتحدَّث الإنجليزيَّة على كلّ حال. مريم قالت: «يتحدَّث باللغة العربيَّة الفصحى». أتصوَّر قدر المرح الذي قد تشعر به مريم بصحبتهم بعد أن تنجز واجباتها. سيبدو تمشيط الشعر مثلاً بالغ اللطف لو أنّ أنّا كريستينا تفعلُ ذلك بتلك الأصابع الناعمة والبيضاء، وستضع لها شرائط ملوَّنة بالتأكيد. ولكن هل ستلبس مريم حجابها أمام أليخاندرو؟ إنّه رجل غريب وهي فتاة بالغة. البالغات لا ينكشفن أمام الغرباء كما قالت أمّي. حتى وإن كان عُمرُ بلوغنا لم يمرّ عليه عام بعد. ماذا عن أنَّا كريستينا أيضًا، هل ستلبس تلك الفساتين الثقيلة بالغة الترف، وهل ستكشف شعرها أمام والد مريم وإخوتها. لا يمكنني تصوُّر أنَّا كريستينا تُخبّئ شعرها الذهبيّ الجميل!

بشيء من الدقَّة، أنا لا أعرف سبب كلّ هذا الانقباض الذي يعبث بقلبي الآن. لم أتوقَّع في حياتي كلّها أنّ في قريتنا الصغيرة يوجد بيت يحتوي على حوض سباحة فوق سطحه كما قالت مريم، واصفة بيتها الذي لم أزره قطّ، تُحيطُ بالحوض مظلَّة شمسيَّة كبيرة وباهظة الثمن. بالتأكيد لو أنّ أليخاندو وأنّا كريستينا قرَّرا زيارتنا، فلن يجدا حوضنا الكائن وسط أشجار الموز والنخيل مُسلّيًا، فهو ممتلئ بالطحالب، كما أنّه بأيّ حال لا يمكن أن يمتلئ، بالكاد سيُبلّل ركبتيهما، لأنَّه مرتبط بقنوات أفلاج تُشتِّت شمل المياه.

بيتنا بلا كراسٍ ولا طاولات. أين ستجلس فساتين أنَّا كريستينا المزركشة، وأين ستخلعُ قبّعاتها الكثيرة والملوَّنة. لا توجد علّاقة ملابس واحدة في بيتنا. فقط هو ذلك الدولاب المشترك بيني وبين أمّي والذي لا يحتوي إلّا على ملابس قليلة جدًّا

ماذا سيظنّ أليخاندرو لو علم أنّ أمّي تفرشُ لي فراشي فوق الأرض لأنام قربها؟ أنا بلا غرفة نوم، ولو افترضنا جدلاً أنّهما سيوافقان على زيارتنا، فلا توجد أيّ غرفة تصلح لاستقبالهما يا للحظّ!

تنتهي حفلة رقص الأجساد في الباص، ما إن يضغط السائق على المكابح بقوّة. يهتزّ جسدي، وأتمالكُ نفسي قبل أن أسقط، أتناول حقيبتي وأنزل. عقلي دائخ بالفكرة. أدخل البيت، أُقبّلُ رأس أمّي، أبدّلُ ثيابي، وأجلس إلى جوارها لتناول الغداء. تسألني عن كلّ شيء كعادتها. المدرِّسات، الزميلات، الواجبات، وأُجيب على كلّ أسئلتها باقتضاب.

لم أُحدِّثها بعدْ عن مريم. أمّي تعرف أن لا مكان في حياتي للصديقات. كلّ علاقاتي عابرة وسطحيَّة. لكن مريم دخلت، من طريق خاصّ وحميميّ دخلت، منذ اللحظة التي قالت فيها أنّ أليخاندرو وأنَّا كريستينا سيقضيان إجازتهما في بيتهم. كنتُ في كثير من الأحيان لا أجد أحاديث مشتركة مع البنات. لا شيء لأتحدَّث عنه سوى علاماتي الدراسيَّة المرتفعة، وتصفيق مُعلِّماتي لي.

لكنَّ مريم قالت لي شيئًا عن ذلك السرّ الذي سنحتفظ به أنا وهي إلى الأبد. فذلك غيّر مجرى حياتي، منذ أن هزّت شيخة أخت مريم

رأسها ثلاث مرَّات لتؤكِّد أنّ ما تقوله مريم لا يخلو من الصحَّة، وأنا أشعر بذهول لا أستطيع التملُّص منه. كنتُ أتناولُ طعامي لوحدي بلا شركاء في الفسحة، وصرنا أنا ومريم على غير العادة نتسكَّع معًا، ونحكي مطوَّلاً قصصًا بلا نهاية. لقد أقسمت مريم بربّ الكعبة أنّها شاهدت ضربة الرصاص التي أصابت أليخاندرو في صدره قرب القلب. شهقتُ عاليًا، كان ذلك فوق تصوُّري. قلتُ لها بهلع: «أمّي قالت: هذا تمثيل. تمثيل». مريم قالت: «ليس تمثيلاً، لقد أصابوه. أصابوه حقًّا. كان يسبح في حوض بيتنا عندما شاهدتُ النُدبة أعلى صدره».

ينتاب أمّي القلق. لقد تغيَّرت شهيَّتي، ولم أعد قادرة على أن أشغل وقتي بالدراسة كما كنتُ أفعل، فلمجرَّد التفكير بأنّ أليخاندرو وأنَّا كريستينا على بعد كيلومترات صغيرة منّي يجعلني مشوَّشة وحزينة. لقد وعدتُ مريم ألَّا أقول شيئًا حول هذا السرّ. من الأكيد أنَّ أمّي سترتعب من مجرَّد تفكيري بهما على هذا النحو. وقد لا تصدِّق أنّ هذا يحدث في قريتنا أصلاً

بعد صلاة المغرب، ومنذ أن بدأنا مشاهدة المسلسل المكسيكي الأوَّل، وجاراتُ أمّي يتعلّلن بالانشغال، ولا يأتي أولاد الحلّة ليتبضَّعوا من دكَّان أمّي الصغير نجلس أنا وهي لنتابع المسلسل الذي قلب حياتنا رأسًا على عقب. فأصبحنا جميعًا دونما استثناء مُغرمين بالبطلين. منتصرين لحبّهما رغم أنّ أمّي واقعيًّا تكره مجرَّد الحديث عن الحبّ بين الرجل والمرأة، وتظنّ أنَّ ذلك ضرب من الخيال. لكنَّها تجلس مثلي، بحواسِّها المتحفِّزة لنرقب معًا أليخاندرو وأنَّا كريستينا من شاشة تلفازنا الأحمر والملتصق بصندوق مكتبة الصالة.

في أحيانٍ كثيرة، أظنّ أنّ أمّي هي الأخرى وقعت في غرام أليخاندرو. إنّها مأخوذة به. الجارات. كلّ الجارات لا يجدن شيئًا مسلّيًا أكثر من الحديث عنهما، رغم أنّ أمّي تُجاهد كثيرًا لتقنع جاراتها بأنّها غير مهتمّة، فالأمر لا يعدو تزجية الوقت، وعدا ذلك فالأمر برمّته تافه.

الرجال توقّفوا عن خروجاتهم المسائيَّة. يعودون من صلاة المغرب، ويعتكفون على هذه القناة التي يصطادها اللاقط ليُفتنوا بأنَّا كريستينا، الجسد الدقيق بكلّ فتنته التي تكشف عنها الفساتين المزركشة. إنّها نقيض نساء القرية الغائصات في ثيابهنَّ الفضفاضة. بالغة الرقّة، وصوتها يخرجُ عذبًا، وفساتينها الطويلة تشدُّ على صدرها، لتكشف عن خطٍّ رفيع يتوسَّط تفَّاحتيها الشهيَّتين.

يجلسُ الرجالُ إلى جوار النساء، ليتأمَّلوا شاشاتهم الصغيرة الماكثة في صناديق مكتبات صالاتهم، يتأمّلون حياة لا يعرفون عنها الكثير، ولم يختبروها من قبل. فهذه من المرَّات النادرة التي يُشاهدون فيها أجسادًا تتجاور لتسرقُ القبلات تحت الملاءات البيضاء، ومن المرّات النادرة التي تُصغي فيها آذانهم لكلمات الحبّ الشبقة.

يبدو لهم الأمر في كثير من الأحيان سماويًّا، وكأنَّ تلك الساعة بكلِّ دقيقة منها قد خُطفت من الجنَّة التي يتصوَّرونها في خيالاتهم، حيث الجمال والحبّ الذي لا ينضب.

لم نعد نستغربُ أبدًا أن تشبّ خلافاتٌ بين الأزواج، لأنّ أحدهما تعاطف مع الحبيبة بينما كان الآخر في صفّ الحبيب. إنّ ذلك بات مُعتادًا ولم نعد نندهش أيضًا من أن يأتي أحدهم مع وجبة عشائه وأولاده ليقول لنا: «اللاقط لم يصطد الحلقة اليوم»، على أمل أن لا

يفوّت على نفسه حلقة من الحلقات. بل إنّ جدِّي عاشق سميرة توفيق، والمتيَّم بها، والذي يحتلّ تلفازنا الأحمر الصغير ساعة يأتي لزيارتنا، بحثًا عن سميرة توفيق وعن صوتها العذب، هو الآخر لم يكن قادرًا على تجاوز أنَّا كريستينا رغم أنَّها لا تحمل سحنة المرأة البدويَّة التي تُرضي شغفه. لكنْ كلّ هذا معقول إلى الآن، لكنْ أن يكون أليخاندرو وأنَّا كريستينا معًا في بيت مريم وعلى الطرف الآخر من قريتنا، فذلك يُوجعُ قلبي حقًّا

نمضي أنا ومريم معًا كلّ يوم، نتجاور على مقاعد الدراسة، وتمتلكُ مريم أجوبة جاهزة لكلِّ أسئلتي. لكنِّي شعرتُ أنِّي واقعة في شَرَك كبير عندما أحضرت لي مريم رسالة مكتوبة بحروف لا تُقرأ. قالت إنّها اللغة الإسبانيَّة. قالت أيضًا إنّ أليخاندرو وأنَّا كريستينا يُقدِّران ما أشعر به وأنّهما يرسلان لي تحيَّاتهما كانت هنالك قُبلة بأحمر الشفاه في آخر الرسالة غير المفهومة، وكانت الرسالة مُعطَّرة كما يبدو بعطر أنَّا كريستينا.

لم تكن لديّ لحظتها أجنحة لأطير. هل يُعقل أنّهما الآن يعرفان حقًّا بوجودي، وأنِّي صديقة مريم؟! كانت الأرض هشَّة تحت أقدامي وأنا أخبِّئ الرسالة في جيب مريولي. إنِّي لا أفهم شيئًا، لا أفهم أيّ شيء من تلك الكلمات الغامضة، ولكنَّ شيئًا ما كان يبتهج في كلّ جسدي.

لكنْ أين أخبِّئ الكلمات الغامضة وتلك القُبلة بالغة الحُمرة؟ أمّي تفتِّش كلّ شيء. تدعكُ البيت ليل نهار. تكنسُ كلّ شيء أمامها. أمّي ضدّ الذاكرة. أعدمتْ كلّ صور زفافها، كلّ الصور التي كنتُ فيها

بصحبة أبي. نحن في بيت لا يحتفظ بأيّ شيء. أمّي تفتحُ الأدراج يوميًّا لتدعكها تفتحُ العلب الصغيرة، جيوب حقيبتي المدرسيَّة، جيوب ملابسي، دفاتري. إنَّها تفتح كلّ شيء إلَّا قلبها المغلق. تحميني من الهواء، من الجراثيم. إنّها في غاية الحرص. كثيرًا ما توهمني بأنِّي مريضة وضعيفة، وسأسقطُ في أقرب مطبّ خارج جدران بيتها لكن أين يمكن أن تكون الرسالة آمنة. أين؟

حسنًا وجدتها سأخبِّئ الرسالة عند مريم. إنّها المكان الآمن والوحيد. تفاجأتْ مريم، لكنَّها تفهَّمت الأمر. الأكثر إثارة هو أن تطلب منِّي مريم أن أكتب رسالة لهما ماذا عساي أقول؟ وكيف يمكنهما أن يفهما لغتي. تضحكُ مريم: «إنّ ذلك يسير، سوف أقرأ عليهما الرسالة. إنّهما يتحدَّثان بالفصحى ويكتبان باللغة الإسبانيَّة».

بدا الأمر مُسلِّيًا ومُغريًا، وكان قلبي يخفقُ بشدَّة، ولا أدري أيّ مشاعر كانت تتملَّكني آنذاك. ما أنا متأكِّدة منه أنّ مريم كما يبدو تريد أن تُشاطرني فرحها.

أمِّي تُراقبني. لا تقرأ ولا تكتب، ولكن تعرف كلّ كتبي وتجعلني أقرأ دروسي بصوت عالٍ. تعرفُ كلّ ما يمكن أن يكون خارج التزامات المدرسة. إنّ مجرَّد وقوع عينيّ في عينيها يفضحُ ارتباكي. كيف سأكتب الرسالة. إنّها فوق رأسي. الثغرة الوحيدة هي نومة ما بعد الغداء. أمّي لا يمكنها بأيِّ حال أن تُفوّت على نفسها قيلولة ما بعد الغداء. إنَّه وقتي الحرّ

«أليخاندرو وأنَّا كريستينا كم أنا فرحة» لا لا ينبغي أن أقول هذا، حسنًا «إنَّه من دواعي سروري أن أكتب لكما منذ أن أخبرتني

مريم عنكما وأنا أشعر وكأنّي في حلم لا أريد أن أصحو منه. .»

لا لا هذه مبالغة. لا ينبغي أن أشعرهما بمشاعر كهذه. «أشعر كأنّي في حلم. حلم أعاد ترتيب علاقتي بالعزيزة مريم. سأقول لكما شيئًا لم أقله من قبل لمريم نفسها. أنا بلا صديقات، ولا أتمكّن من اللعب حتى مع أبناء الجيران. أنا هنا دومًا في غرفة أمّي. قد يبدو مُفاجئًا لكما أن أقول، إنَّ وجودكما في قريتنا، هذا الحدث بالتحديد، هو ما يُعمِّر صداقتنا أنا ومريم». لا لا ماذا ستظنّ بي مريم. من يدري قد يزعجها هذا الكلام وهي تقرأه أمام أليخاندرو وأنّا كريستينا «حسنًا، أنا لا أعرف ماذا يقول الناس عادة في الرسالة الأولى التي يكتبونها في حياتهم. هل لكما أن تُصدِّقا أنّها الرسالة الأولى التي أكتبها ولكي لا أبالغ مُجدَّدًا، لقد كتبتُ من قبل رسالة لأبي ومزَّقتها. كنتُ أهطل بالغضب والأسئلة. وبعد أن هدأتُ وأعدتُ قراءة الرسالة، قلتُ في نفسي، هذه الرسالة لا ينبغي أن تُرسل للآباء، ولكي لا تعثر أمّي عليها مزَّقتها في المرحاض وسحبتُ السيفون. وانتهى أمرها إلى غير رجعة».

«حسنًا إنّكما ومن حيث لا تعلمان تغيِّران قريتنا. لقد تغيَّر الناس وتغيَّرت عاداتهم. جاراتنا أصبحن مُشرقات ورائقات البال على غير العادة. وإلى حدّ ما تغيَّر ذوقهنّ في الملابس والألوان، الرجال أصبحوا مُهذَّبين. العشاء وشاي الحليب بالزنجبيل أصبح له معنى، فالجميع. الكبار والصغار يلتصقون بشاشات التلفاز ليغسلوا تعبهم بكما. أنتما تفعلان ذلك ولا تعلمان. نعم إنَّنا نتغيَّر بسببكما، حتى أنا تغيَّرت. لم أكن أظنّ للحظة واحدة أن تصبح لديّ صديقة، نأكل في الفسحة معًا، ونتجاور في أحاديث لا نهاية لها.

أمّي لا تعرف بعد شيئًا عن مريم. بالتأكيد سيكون ذلك مُفاجئًا لها. فلطالما كنتُ البنت الوحيدة التي تحرسها أمّها ريثما يأتي الباص، وتظلّ على قلق ريثما يعود بها. تصغي لكلّ دروسي وتنتبه لإنجاز واجباتي من دون أن تفهمها. ولطالما كانت تبعدني عن بنات الجيران الخارجات في نزهات ما بعد الظهر. فإن كنتُ مُصرّة على الخروج، خرجت معي وبقيت فوق رأسي، إلى أن يتغامز البنات عليّ ويهربن. ربَّما أنتما غير مُهتمَّين الآن بكلّ ما أقوله لكما، ولا أدري لماذا أُسهبُ في كلّ هذه التفاصيل. فقط أردت أن أقول إنّي أتغيَّر، وأفعل أشياء لم أعتد عليها من قبل. لم أزاحم يومًا على مقصف المدرسة، لأنَّ أمّي تحضِّرُ لي وجباتي في المنزل. لكنَّ مريم زجَّت بي بين الزحام لأشتري العصير والساندويش، وجرَّبتُ لأوّل مرّة أن أطلب الخروج لدورة المياه من دون أن تكون لديّ رغبة بفعل ذلك. إنَّها «المشاكسة» كما تقول مريم. أمَّا أسوأ ما فعلت على الإطلاق، فهو القفز من فوق سور المدرسة لشراء الآيس كريم. كان قلبي يخفقُ أكثر من المعتاد، مريم تقول نحن لا نخطئ، نحن «نتجرَّأ» وحسب. وأنا كنتُ أتجرَّأُ معها وكانت تسخرُ منّي منذُ أن أخبرتها أنّي لم أكذب في حياتي كلّها. لقد ضحكتْ بشكل هستيريّ غير مُصدِّقة بوجود كائن على وجه البسيطة لم يجرِّب الكذب يومًا

صدقًا، لا أعرف كيف أنهي هذه الرسالة. إنّني في بالغ فرحي أنّكما معًا تستمعان الآن لرسالتي. فقط أردتُ أن أقول. أنا أنتظر المساء كلّ يوم. إنَّه الوقت الوحيد الذي تُشغّل فيه أمّي التلفاز، وتجتهدُ كثيرًا لاصطياد القناة، بتحريك «الأريل»، وبالمناسبة أمّي تغيَّرت أيضًا إنَّها لا تفصحُ بذلك، ولكن في عينيها تستيقظ نظرة لم

أعتد عليها. شيء من الوداعة ربَّما، أو حزن شفَّاف، لستُ متأكِّدة ما عساه يكون، ولكنَّه يحدث حقًّا.

ما أنا متأكِّدة منه أنَّ أهالي قريتنا لو يعرفون فقط أنِّي الآن مُنكبَّة على كتابة رسالة لكما، لكانوا أخبروني المزيد من الأسرار والحكايات. لكنْ، هذا سرّنا أنا ومريم ولن نبوح به أبدًا».

وضعتُ توقيعي أسفل الرسالة، كتبتُ اسمي عليا باللغة الإنجليزيَّة. طويتُ الرسالة بعناية، وقبل أن يتحرَّك جسد أمّي، كنتُ قد خبأتها في صدريَّتي الداخليَّة.

طارت مريم برسالتي إليهما، ومن ثم بدأت تهطل عليّ الرسائل كالمطر، ولكنَّها هذه المرّة باللغة العربيَّة، وبخطّ مريم كما طلبا منها، وكنتُ أقرأها عشرات المرّات وينتشي قلبي، وأضطرّ أن أحفظ رسائلي عندها مجدَّدًا، ومن ثم أعود كلّ يوم لأكتب رسائلي لهما، ولأفشي المزيد من حكاياتي.

نجلس أنا وأمّي أمام الشاشة الصغيرة، حيث تكبر الأحداث والمفاجآت. كما يكبر شغف أمّي. لقد وصل بها الأمر إلى أن تُسجِّل صوت أليخاندرو في مسجِّلتها الصغيرة في الحلقات الأخيرة، وكانت تكرُّ صوته طوال النهار أو في ساعات متأخِّرة من الليل.

وحدها أمّي، من بين جميع نساء قريتنا، كانت تبعدُ صورة أنَّا كريستينا من مسرح الأحداث. لا تراها. لا تتحدَّث عنها. بل إنِّي للحظة شعرتُ أنّها لا تريد لهما أن يكونا معًا. ولكنِّي لم أكن قادرة على قول ذلك لهما لقد خشيتُ أن يؤذي ذلك مشاعر أنَّا كريستينا بالغة الحساسيَّة.

أنَّا كريستينا ممثِّلة بارعة وفاتنة، وسيبدو بائسًا جدًّا أن يكون عُمرُ أمّي مُقاربًا لعمر أنَّا كريستينا. الفارق أنّ أمّي تزوَّجت وهي في الرابعة عشرة، بينما أنَّا كريستينا كانت تدرسُ وتفكِّر في التمثيل آنذاك، كما سردت لي في إحدى رسائلها. كما أنّ أمّي تتضاءل كلّ يوم وتغوص في ثيابها الفضفاضة. مرَّات قليلة هي تلك التي شاهدتُ فيها شَعْرَ أمّي، فأنا لا أعرف الكثير عن تفاصيل جسدها.

إنّها لا تخرجُ من استحمامها إلَّا وقد مشَّطتْ شعرها وارتدت كلّ ثيابها. لكنْ في ذلك اليوم الذي تمزَّقت فيه أربطة كاحلها، بسبب التواء مُفاجئ، في دوريَّة التنظيف المقيتة، بقيت في فراشها لثلاثة أيَّام ورفضت خدمة جاراتها، إلَّا فيما يتعلَّق بإعداد الطعام قائلة: «لديّ امرأة في بيتي»، وكانت تقصدني أنا.

بات عليّ أن أرفع جسدها وأن أضع الوسائد خلفها، وأن أساعدها في تناول الطعام. وعندما رفضتْ الاستحمام، عرضتُ عليها أن أمشِّط شعرها. فكان أن سمحت لي. شعرها شديد السواد، مفروق من المنتصف، حتى لكأنّ كلّ شعرة على رأسها تعرفُ طريقها على جانبيْ الأخدود الفاصل في المنتصف. أخالُ أنّ أمّي لم تُغيِّر تسريحة شعرها منذُ وُلدت. إنّها تصنعُ في كلّ مرّة الضفائر نفسها، ولكثرة ما كانت تشدُّ شعرها بالشرائط التي تقطعها من ملابسها البالية، فإنَّ مفرق رأسها بدا واسعًا جدًّا، ولم يعد ينمو فيه الشعر. ولكنَّ ذلك لم يؤثِّر على شدَّة سواده وملمسه الناعم، وهو ينساب كالحرير أسفل كتفيها. إنّه لا يقلُّ جمالاً عن شعر أنَّا كريستينا الذهبيّ. لكنَّ أمّي تعقصه طوال الوقت فلا يراه أحد، أيّ أحد، سوى المياه التي تغمره في دورة المياه. حتى أنا، ابنتها الوحيدة، لا أراه ولا ألمسه، ولم أجرِّب يومًا

أن أغرز أصابعي في كثافته، ولو قُدِّر لي يومًا أن أرى أمّي بدون شيلتها، ربَّما لما عرفتها بالتأكيد كانت ستبدو وكأنّها امرأة أخرى. لهذا السبب ربَّما كانت أمّي تنهرني كلّما تدلَّت شيلتي على كتفيّ، هكذا ببساطة لكي ينتهي بي الأمر مثلما انتهى بها.

السرّ الذي أخبرته لأنَّا كريستينا ولم أتمكَّن من إخباره يومًا لأمّي، هو أنّي أحبُّ شعري كثيرًا، وأتمنَّى أن تنظر الشمس إليه كلّ يوم، وأن تلعب به نسماتُ الهواء، وألَّا أعقصه أبدًا أبدًا، بل أُبقيه مفرودًا ومشاكسًا، وإلَّا فإنّه لا معنى لأن أسرِّح شعري كلّ يوم.

أمّي الآن أجمل ما تكون. طلبتُ منها أن تترك شعرها منسدلاً على كتفيها، كنتُ أنظر إليها، فتحمرُّ خجلاً منِّي: «لا تعقصيه يا أمِّي أرجوكِ. أنتِ الآن أجمل من أنَّا كريستينا». لا أدري لماذا احمرّت وجنتاها، وغطَّت وجهها بدلال غير معتاد: «لا يجوز أن يراني الرجل الغريب». قلتُ لها: «إنَّه ليس غريبًا يا أمّي نراه ولا يرانا». قالت: «لم تخلع امرأة من قريتنا من قبل شيلتها أمام رجل غريب يا عليا وما أدرانا بما يفعل الكفَّار. ربَّما ينظرون لنا من مكان ما».

سخَّنتُ الطعام وجلستُ بقربها بعد أن وجَّهتُ اللاقط واصطدتُ القناة. خرج أليخاندرو جامحًا فوق حصانه، فاكتست أمّي بمزيد من الحُمرة والخجل، وكلَّما نظر أليخاندرو باتِّجاهنا، شعرتُ بقلب أمّي يقفز من مكانه. في البداية كانت الشيلة تتزحزح وتسقط، وكانت ترفعها، فتعاود السقوط، لاحقًا نسيت أمّي أمر الشيلة المتدلِّية على كتفيها.

نامت أمّي تلك الليلة هانئة، ومن الأكيد أنّ حلمًا لطيفًا قد

زارها. سمعتها تتحدَّث في منامها بكلام غير مفهوم.

ما لبث شيء بغيض ومُضجر أن تسلَّل إليّ. شيء غامض وعصيٌّ على إدراكي. حصل ذلك عندما اختفت مريم. لم أرها في المدرسة. غابت لأكثر من ثلاثة أيَّام متواصلة. صارت المدرسة مُوحشة من دون حكاياتها لم يكن يفوتها شيء، وهي تتحدَّثُ عن كلّ ما يُؤثِّث حياة الحبيبين، حتى الخلافات الصغيرة التي تقع بينهما، والنزهات التي يذهبان إليها، ورقائق البطاطا التي تُرسلها أنّا كريستينا لي مقرمشة كما أحبُّ، فنأكلها بشهيَّة في فسحة المدرسة. الدفء الخرافيّ الذي لم أجرِّبه من قبل، وهو يندسُّ في التفاصيل الصغيرة، فيبثُّ حيويّته في روحي.

مرضت مريم، فانقطعت لأيَّام عن المدرسة، وانقطعت معها أخبار أليخاندرو وأنّا كريستينا. انقطعت الرسائل، وشعرتُ بفراغ هائل يملأُ قلبي. شعرتُ بخيبة أمل. وكانت المدرسة كئيبة والدرس مملاً، والوجوه لا تسعفُ قلبي بشيء، أمّا تناول السندويشات في تلك الردهة، فقد بدا لي كابوسيًّا. كنتُ أفكِّر لحظتها من أفتقد الآن يا ترى. مريم أم أليخاندرو وأنّا كريستينا؟ ما الذي يُوجعني، ويُحدثُ كلّ هذه الفوضى في قلبي؟ ليست لديّ رسائل منهم تبلِّلُ قلبي. ليس لديّ سوى تلك المقاطع التي أحفظها عن ظهر قلب من رسائل قديمة.

بعد أيَّام إضافيَّة من غياب مريم وهي تُعاني من جدري الماء، كما قالت لي أختها شيخة، خُيِّل إليّ أنِّي لا أنشد أليخاندرو وأنَّا كريستينا في حقيقة الأمر. كنتُ أنشد حكايات مريم الطازجة، الحكايات التي تنجو في كلّ مرّة من مطبّ أسئلتي. كانت لديها إجابات، وكان هذا

أكثر ما يلفتُ انتباهي. سرعة البديهة تلك، وحضور الدهشة في كلّ ما تقوله لي، وهي تُضيفُ شيئًا ما من فتنتها الخاصَّة، رغم أنّها لم تكن طالبة مجتهدة على أيّ حال، بالكاد كانت تنجح. أفكّرُ أيضًا في الصدق الذي تقول به الأشياء. صادقة لدرجة أنَّ عينيَّ توشكُ على أن تدمع وهي تحكي عن ذلك اللهو الخاصّ الذي لا يتسنَّى لي أن أعيشه. وأكثر من ذلك، كنتُ أبكي مرارًا في دورة المياه بسبب الهُبل الجامح واللامحدود في علاقتها بالأشياء. ذلك القفز المتهوِّر فوق الأفلاج الصغيرة وهي تركب درَّاجة هوائيَّة، التزحلق المجنون فوق لوح من أعلى شجرة المانجو إلى حوض المزرعة، الركض المدهش وراء قطيع من أغنام جدِّها أو وراء قطيع من فقاقيع الصابون المتطايرة. يا إلٰهي! كيف يمكنها أن تجعل الصورتين على درجة واحدة من الجمال. هذا ما كنتُ أفكِّر فيه طوال أيَّام مرضها

كنتُ متأكِّدة من أنَّ قصَّة آنا كريستينا وآليخاندرو ستنتهي يومًا كما انتهى المسلسل، وفسد مزاج قريتنا، فعادوا إلى حياة رتيبة وكلام عاديّ وأحلام بلا أبطال، لكنّ «ماريّا مرسيدس» ومنذ الحلقات الأولى، سرعان ما أعادت دبيب الحياة فيهم، لقد دفعتهم لتطليق صورة أنَّا كريستينا، ولم يتورَّع جارنا أبو عدنان عن إلصاق صورة ماريّا مرسيدس فوق صورة أنَّا كريستينا، خلف ثلَّاجة المشروبات الغازيَّة، ليطالعها خلسة بين الفينة والأخرى. كنتُ متأكِّدة أنّهما سينتهيان يومًا ما، لكنْ لا يمكن أبدًا أن تنتهي حكايات مريم. في غيابها، تيقَّنتُ أنِّي كنتُ مسحورة بها أكثر من أيّ شيء آخر.

أكثر ما كان يُدهشني صوتها الخاصّ المرتفع وقهقهتها العالية، لم تكن تُقيم وزنًا للمديرة أو للمدرِّسات. بينما لم يسبق لي في حياتي

كلّها أن جرَّبتُ ذلك الضحك الخارج من منطقة غامضة في الروح، كما لم أجرِّب الكلام على ذلك النحو الذي تستعمله مريم، فيثيرُ جنون من حولها. ربَّما الأمر المشترك والوحيد بيننا، والذي لم أنتبه له سوى الآن. الآن وحسب. هو أنَّنا. أنا وهي على اختلافنا الشاسع، بلا صديقات يتودَّدن إلينا.

في مرض مريم، كنتُ أقول في نفسي لماذا لم يكن بيننا أحاديث أخرى غير أليخاندرو وأنَّا كريستينا لماذا لم نتحدَّث عن بعضنا أكثر. أرغبُ الآن بشدَّة أن أعرف أشياء تخصّها

لاحظتْ أمّي فقداني لشهيَّتي، لاحظت اصفراري. ولم يكن بالإمكان أن أُخبرها شيئًا عن مريم، عن الدهشة التي ملأت وقتي، عن الحياة التي تحرَّكت بداخلي، عن صخب مريم وضحكتها وقصصها الطريَّة والسرِّيَّة، عن الفطائر التي تُقْسم عشرات المرّات أنّ أنَّا كريستينا كانت تدخلُ المطبخ وتخبزها في ساعة باكرة من الصباح. الفطائر الليِّنة التي تنزلق إلى معدتي بخفَّة، وتبقى لذّتها لتُسيطر عليّ طوال الوقت.

لكنّ أمّي التي تكنسُ الأسرار كانت تعرف كلّ شيء. أنا بلا أسرار. إنَّها تعرف عن مريم. لقد تيقَّنتُ من ذلك. زارت المدرسة فالتقطت أسراري الصغيرة. أشعرُ في كثير من الأحيان أنّ أمّي إسفنجة ضخمة، تمتصُّ كلّ ما يتعلَّق بي، ويومًا ما ستبتلعني ولا يعود لي وجود. على الأقلّ أنا أغبط مريم، لديها حكاياتها. أنا لا شيء، حتى مذكَّراتي الخاصَّة يبتلعها المرحاض!

كنتُ أذوي، ويصفرُّ وجهي كلّ يوم، أمّي باتت متأكِّدة جيِّدًا أنَّه آن أوان التدخُّل. فكيف لا يتمكَّن الكلّ من معرفة الجزء؟ الجزء أيضًا

في كثير من الأحيان يتمكَّن من معرفة الكلّ، ولذا، فأنا أفهمها إلى حدٍّ جيِّد. أفهمها عندما تتيقَّن من نومي، وتفتح المسجِّلة التي سجَّلت فيها صوت أليخاندرو، بينما كانت تبتر صوت أنَّا كريستينا أقدِّرُ رغبتها العميقة تلك، وهي تكرُّ صوته كلّ ليلة مرارًا وتكرارًا إلى أن تغدو إصبعها غير قادرة على كبس الزرّ من شدَّة التعب، فيغلبها الخمول وتنام. الجزء يفهم الكلّ أيضًا عندما تحلم بشيء ما، لا أتمكَّن من رؤيته معها، ولكنَّه بالتأكيد شيء يدعو إلى ذلك التأوُّه الحزين والشفَّاف. والآن أنا أفهمها جيِّدًا وهي تبتر ذاكرة أبي.

تناولتْ أمّي يدي في صباح يوم الجمعة، كنتُ قد رفضتُ تناول قروص السمن والعسل على الإفطار. بعد صمت قصير، قالت لي: «لماذا لا نزور مريم؟». كان ذلك مُفاجئًا جدًّا بالنسبة لي. فأضافت: «أخذتُ العنوان من المدرسة». خفق قلبي بشدَّة. هذه المرّة ليس لأجل أليخاندو وأنَّا كريستينا، ولكنْ لأنّ أمّي تمسكُ بيدي بحرارة لم أتعوَّد عليها، ليس لأجل آليخاندرو وأنَّا كريستينا، فوجه مريم هو الذي يُسيطر عليّ الآن.

خرجتْ أمّ مريم لاستقبالنا بعد أن قرعنا الجرس. سلّمت علينا بمودَّة هائلة. كانت تبدو أكبر من أمّي بعقدٍ من الزمان. بيتهم صغير جدًّا باب حديديّ أزرق قشّرتْ الشمسُ أطرافه، يفضي إلى حوش صغير، به ريحان وياسمين وشجرة مانجو يابسة الأطراف. سألنا الأمّ عن مريم، فأخبرتنا عن الحمَّى التي لم تنخفض بعد. دلفنا إلى البيت، رائحة اللبان تعبقُ من كلّ مكان، الستائر المفتوحة تكشفُ عن نوافذ كبيرة تسمحُ لقسطٍ جيِّد من الضوء بالدخول. جلسنا على الزوليَّة النظيفة. لم يكن هنالك كراسٍ ولا طاولات. لفتني التلفاز البنّي

الصغير جدًّا لم أكن أظنّ بوجود تلفاز بنّي أصغر من تلفازنا الأحمر. خرجتْ شيخة من مكان ما. ابتسمتُ في وجهها لكنَّها لم تفعل، بدت كمن مسَّته رعشة، ففرّت من أمامنا بسرعة.

دِببةٌ صغيرة محشوَّة بالقطن، تصطفّ فوق مكتبة طوليَّة في زاوية الصالة، بها مجموعة من قصص الأطفال. وجدتني أقفُ وأتناولُ إحدى هذه القصص. قلّبتُ أكثر من قصَّة بين يديّ بدهشة، الكثير من الجمل أعرفها جيِّدًا، لقد قرأتها في مكان ما ولا تزالُ مخبَّأة في قلبي. دخلت أمُّ مريم مع تمر وقهوة وفناجين، وقالت: «عمُّ مريم يحضر لها الكتب والقصص، تقرأ فيها طوال الوقت، وتُعيدُ كتابتها أحيانًا، ليتها تهتمُّ بدروسها بدلاً من هذا العبث».

انخرطت أمّي وأمّها في أسئلة ونقاش، بينما قلتُ لهما سأصعد إلى غرفة مريم. أشارت لي أمّها إلى الغرفة المجاورة للصالة.

فتحتُ باب غرفتها. كان هنالك فراش على عرض الغرفة، أحصيتها فوجدتها لخمسة أشخاص، وبمعزل عنهما فراش عريض خمَّنتُ أنّه لأمّها وأبيها الشراشف بألوان مختلفة أزرق وأحمر وأخضر وأصفر. شرشف الوالدين مشترك ويميلُ للبنِّيّ. لم تكن هنالك صورٌ على بطّانيّاتهم، فهي تُشبه إلى حدٍّ كبير بطّانيّات بيت جدّي، مخطَّطة وسميكة وملمسها خشن. وكما يبدو، لم تكن دورة المياه مُلتصقة بالغرفة اليتيمة. ربَّما يضطرون ليلاً للتسلّل إلى حمَّام الحوش ليقضوا حاجاتهم. بدا لي ذلك مُرعبًا، ولو حصل معي لكنتُ احتجتُ رفيقًا يخرجُ معي في ساعات الليل المتأخِّرة.

البطّانيَّة الزرقاء المخطَّطة بالأحمر بدت لي ممتلئة، مريم كانت

تنتفض تحتها هل هي الحمَّى، أم أنّ شيخة أخبرتها بقدومي. اقتربتُ منها. فأجهشتْ بالبكاء. ضغطتُ بيديّ على كتفها، فخرج وجهها المحمرّ، لفحتني سخونة جسدها، وشاهدتُ وجهها مُبقَّعًا بالحبوب. صرختْ بي لأوَّل مرَّة: «لماذا أتيتِ؟». كنتُ هادئة وأنا أقول: «افتقدتكِ»؟

أخرجت رأسها من تحت البطَّانيَّة، شاهدتُ شعرها لأوَّل مرَّة، كان منكوشًا، لم يكن ناعمًا كما أوحى لي بياض وجهها، كان متموِّجًا ويميل للون البنِّي الغامق، «أنتِ كاذبة. لقد جئتِ لأجلهما أنا أعرف. هما ليسا هنا الآن، ولكنَّهما سيعودان. سيعودان عمّا قريب. اسألي شيخة. أرجوكِ اسألي شيخة».

عندما أومأتْ لي شيخة برأسها باديء الأمر، صدَّقت، وتمنَّيتُ في أعماقي أن أرى حوض السباحة الخرافيّ ذاك، تمنَّيتُ أن أنظر لأفران المطبخ الساخنة التي تخرجُ منها الفطائر والحلوى الشهيَّة تلك. تمنَّيتُ أن أجد أنَّا كريستينا على كرسيّ هزَّاز مُنشغلة بكتابة الرسائل لي، وآليخاندرو يركضُ على السلالم الطويلة المؤدِّية لطوابق لامتناهية في البيت العملاق الذي تهيَّأ لي. ولكنِّي بتُّ أعرف جيِّدًا أنّ حكايات مريم أكثر أهمِّيَّة من ذلك.

أرادتْ مريم أن تقول أشياء كثيرة لحظتها، لكنَّها كانت تجهشُ بالبكاء وتنتفض. قلتُ لها: «كنتُ فقط أتجرَّأُ يا مريم. أتجرَّأُ على تصديقكِ». تذكَّرتُ أمّي التي كانت تسهرُ خفية مع أليخاندرو وتجلبه لأحلامها، وجارنا أبو عدنان كان يُعلِّق صور أنَّا كريستينا خلف ثلَّاجة المشروبات، ليتلصَّص عليها بين الفينة والأخرى كلَّما انقطع الزبائن،

قلتُ مجدَّدًا: «كلّنا كنَّا نتجرَّأ يا مريم».

تلتقطُ مريم أنفاسها بصعوبة، لتُسيطر على اصطكاك أسنانها وتلك الارتجافة الهائلة المتدفِّقة في جسدها: «لم أكن أتسلَّى، سيعودان. أقسم لكِ. وإن لم يعودا. أقسم لكِ لن أدخل المدرسة مجدَّدًا». دخلت أمُّ مريم على وقع الصوت المرتفع: «اعذريها يا ابنتي. إنّها تهذي بسبب الحمّى».

خرجنا أنا وأمِّي من بيت مريم. رفعتُ بصري لأتأمَّل سطح بيتهم، كمن يبحثُ عن مظلَّة ملوَّنة، أو طرطشة ماء ناتجة عن اصطدام جسد آليخاندرو بالحوض.

قالت أمُّ مريم التي شيَّعتنا بعفويَّة: «جفَّفتُ السحّ والليمون فوق السطح. الموسم طيِّب هذا العام».

كان ذلك آخر يوم أنظر فيه لوجه مريم. آخر كلام دار بيننا. وكلّما شاهدتُ طيف وجهها في فناء المدرسة، كانت تفرُّ بعيدًا كالمجنونة. يبدو أنّ أليخاندرو وأنَّا كريستينا لم يعودا بعدْ!

بئر عمَّتي مزنة

لثلاث مرَّات مُتوالية، شدّدت أمّي على العمّ عامر الذي يزورني في مستشفى النهضة من حين لآخر، شدّدت رغبتها في ألَّا ينقطع عن المجيء، وأن يُطلّ علينا بين فينة وأخرى، لأنّها تخشى عليّ البقاء في ثلَّاجة الموتى لليلة كاملة، ريثما يأتي أقربائي من قريتي البعيدة، فالسيَّارات قليلة إن لم تكن نادرة، ووالدي وعمّي الوحيد يدرسان ويعملان آنذاك في البحرين.

قال الطبيب بدون شفقة زائدة، إنّه لا يمكن لهذا الجسد الضئيل الذي خرج للتوّ غضًّا وهزيلاً، لا يمكن بأيّ حال أن يصمد بكلّ الأوجاع التي تلبَّست به. إنّه جسد هشّ وبلا مناعة، والحصبة والملاريا وجدري الماء وعلل أخرى نبشت أظافرها بشراسة فيه.

كنتُ تحت الأجهزة التي تحيط بي من كلّ صوب أصغي إليه، وأحزن لدمع أمّي. وكانت الأنابيب المتَّصلة بجسدي، الصغيرة

والسميكة منها، أوّل معرفتي بالحياة.

ولم تكن لديّ أيّ حيلة أتحايل بها لأعيش، لأستيقظ من تعبي ووهني، كما أنّي بصدق أكبر، كنتُ ـ كما يبدو لي ـ أفقد تمامًا الشغف بالعالم من حولي، وكأنَّ تكوُّري اللزج في الظلمات التي خرجتُ منها، كان أكثر رأفة بي. لكنِّي بطريقة أو بأخرى، خرجتُ إلى النور وبي أسقام لا تُعدّ ولا تُحصى.

كان دمعُ أمّي يهطل غزيرًا فوق وجهي وقماطي، وهي تخشى أن أدخل ثلَّاجة الموتى. إنّ حزن أمّي لم يكن لأجلي وحسب، لقد فقدتْ من قبل أخي البكر، وقضت سنوات طويلة في انتظار طفل يُعوِّض فراغ أمومتها الهائل، فكنتُ أنا وكان تعبي. وكان العمّ عامر يمرّ يوميًّا بأمّي يتفقَّد أمري، فلا أنا أموت ولا أنا أعيش. هكذا ولجتُ الحياة بتردُّد كبير، لحظة تدنيني من الدنيا وأخرى من ثلَّاجة الموتى.

لكنَّ جنِّيَّة واقفة على شبَّاك قسم المرضى الذي أنا فيه برفقة أطفال من أعمار مختلفة، كانت تمعنُ النظر فيّ، وكانت تشعر بملل هائل من وحدتها وعمرها المديد والأبديّ ـ كما حكت لي لاحقًا ـ كنتُ آنذاك أتلقّى التغذية من الوريد وهزالي يُضعفُ أمّي.

أمّي التي كلَّما خرجتْ لتأكل شيئًا عادت ومعها لعبة من البائعات المصطفَّات واللواتي يترصَّدنّ الزوَّار أملاً في بيع الدنجو والزلابيَّة واللولاه والألعاب. وكنتُ أنصتُ للأمّهات المجاورات يُعاتبنها بأنَّ: «هذه الطفلة بنت أيَّام، لا تعرف بعد معنى اللعب». فأنصتُ للأمل الكبير ينمو في قلبها ولا يتزعزع وهي تردّ عليهنّ: «ستكبر زبيدة وستلعب يومًا ما بها». في تلك الليلة تحديدًا، قال الطبيب لأمّي:

«على الأغلب، لن تصمد زبيدة الليلة». سقطت الألعاب والدموع والكلمات. لكنَّ الحياة لم تنهزم بداخلي.

لقد سقطت الجنِّيَّة من إفريز النافذة التي كنتُ لمصادفة قدريَّة أرقبها منها، سقطت وانسابت في جسدي كالماء، كالتعاويذ، ولم تفكِّر الجنِّيَّة كثيرًا في الأمر، حسمت قرارها في اللحظة التي التقت عينانا ببعضهما بعضًا

العمّ عامر كان مُستعدًّا في أيّ لحظة لتلقِّي خبر الموت، مستعدًّا لكي يتجشَّم عناء المسافة، كي لا يدخل الجسد الغضّ الثلَّاجة الموحشة، والتي بالتأكيد تزعج الموتى فلا يهنأ فيها مقام، إلَّا أنّ أمّي كانت تُكذِّبُ ما يقوله الطبيب. مرّت الليلة الموحشة ولم يحصل شيء، بينما كانت الجنِّيَّة تتمشّى في دمي.

في صباح اليوم التالي، كان الطبيب مُتعجِّبًا من الجسد الضئيل الذي بدأ يتعافى، ويُفارق انطفاءه الحادّ. بدأ الجسد على غير المتوقَّع يزهر يومًا بعد يوم.

صرنا أنا والجنِّيَّة جسدًا واحدًا، جسدًا يقظًا للفتنة، يقظًا لمخالب الدنيا وربَّما بسبب الجنِّيَّة التي تتمشّى في دمي، تحوَّلتُ ببساطة ومن دون عناء كثير إلى سندريلَّا أقول ربَّما لأنّ السندريلّات يُعانين كثيرًا لكي يتحوَّلن. لقد شاهدتُ عمَّتي مزنة وهي تحاول ذلك لمرَّات متواصلة ولم تُفلح.

لطالما أوحت لي جنِّيَّتي بأنّ حكاياتنا كسندريلّات، يمكن أن تصبح شيئًا ما، لكنَّ أحدًا لم ينجح يومًا في مقاطعتنا. بدا لي الأمر مملًّا بعض الشيء. أردتُ أن أقول شيئًا، ولكنِّي لم أتمكَّن من ذلك.

كنتُ أتساءل بيني وبين نفسي، «ماذا لو حدث شيء ما خارج الروتين المعتاد!».

في ليلة سابقة لليلتنا هذه، حلمتُ برئيس الطبَّاخين رامون جالسًا بيننا في سهرتنا الخاصَّة. صحوتُ من نومي فزعة ودلقتُ الماء في جوفي، جلستُ وشربتُ قهوتي، واستعدتُ حلمي لأكثر من مرّة. «لم يحصل أن انضمَّ رجلٌ لطاولتنا من قبل!».

وبعد أن انجلى فزعي فكَّرتُ في نفسي: «يمكن لهذا الرجل أن يصنع حدثًا جوهريًا في ليلتنا الاستثنائيَّة». في واقع الأمر، كنتُ أشعر أنَّنا وسط ذلك الاحتفاء المبالغ به بحاجة إلى من ينقذنا، فالناس المخدَّرون في الخارج يندهشون لما نقوله لساعات ومن ثم ينسون الأمر كأنَّه لم يكن. لم يعد هنالك ما يرفع منسوب الإثارة في أحاديثنا بتنا نعتاد، والرتابة عدوّ الحكايات الجيِّدة. كرَّرتُ السؤال على نفسي وأنا أدلق فنجانًا آخر من القهوة: «ماذا لو توفَّر للحكي آذان مُصغية حقًّا؟».

في حقيقة الأمر، إنَّنا نتغيَّر، ويتغيَّر طعم حكاياتنا ليلة بعد أخرى. لذا كنتُ أراهن على هذه الخدعة الصغيرة والتي يمكن أن تُنقذ الحكي من فخاخ الملل.

حسنًا لقد نثرتْ جنِّيَّتي غبار سحرها الأبديّ، ليخرج لنا هذا الرامون، والذي بالكاد يشبه رئيس الطبَّاخين الحقيقيّ. أرجو وحسب أن لا تكون خدعتي بذلك السوء الذي لا تحتملنه. رغم أنِّي أظنّ في أعماقي أنَّ جنِّيَّاتكنّ ما كنَّ ليخبِّئن خدعة بسيطة كهذه. وبمرور السهرة، صرتُ أفكِّر: «ماذا لو كان رامون خدعة مُسلِّية بالنسبة إليكمّ أيضًا؟».

يبدو التواطؤ محتملاً بيننا الآن. فكلّنا نعرف أنَّ الأمراء وإن كانوا مخترعين، يُحكمون إغلاق الحكايات على نحو جيِّد، أو تصعيدها على الأقلّ.

وقبل أن تبادرن لتوبيخي، أودُّ إضافة شيء أخير. في حقيقة الأمر، إن كان رامون استمع إلى الحكايات أم لا، فهذا لا يُغيِّر شيئًا البتَّة. المهمّ أنَّنا أوقدنا حكايات لم نقلها من قبل كما ينبغي.

لقد قلتُ لرامون قبل أن ينضمّ إلينا، ما قاله الثعلب للأمير الصغير عندما طلب تدجينه، قلتُ له: «يا رامون، ينبغي أن تكون صبورًا اجلس على مبعدة منِّي قليلاً سأرمقك بطرف عيني، ولا تقل شيئًا فاللغة هي مصدر الخلاف. لكنْ بإمكانك أن تقترب منِّي شيئًا فشيئًا». ولذا فإنّ رامون منح كلّ واحدة منَّا أكثر ما تحتاجه الليلة لكي تتوهَّج، أعني الإصغاء.

حسنًا كان من المفترض أن أبدأ حكايتي من هنا

أنا أكتب لأسباب تتعلَّقُ ببئر عمَّتي مزنة. فمنذ أن جفّ بئرها وأنا أكتب. أكتب دونما انقطاع. كثر لا يحبُّون كتابتي. ولكنِّي أكتب لأسباب أبعد ممّا قد يتصوَّرون. الأطبَّاء قالوا بأنَّ خالتي مزنة تشكو ألزهايمر. أمّي وأبي والجيران قالوا إنّها العين التي تصيب ولا تخيب أبدًا، وأنا قلتُ لقد جفّ بئر عمَّتي.

عمَّتي مزنة بالغة المرح والجمال. تقولُ الشِعْر والأناشيد في كلّ مناسبة. أذكرها جيِّدًا، خفيفة كأغنية، تنطُّ وتركض خارج نسيج العادات المُتعارف عليها في قريتنا تحفرُ شيئًا يخصُّها في ذاكرة كلّ واحد منّا تزوَّجتْ عدّة مرَّات ولم تكن تنجبُ الأبناء. لم يكن إنجاب

الأبناء السبب الرئيسيّ في خسارة الأزواج ـ على الأقلّ كما أظنّ ـ وإنَّما لأنَّ أحدًا منهم لم يكن ليحتمل خفَّة روحها، وضحكتها العالية.

مكثت عمَّتي في بيتنا بعد طلاقها الأخير. أبي هو أخوها الوحيد. فليس من المفضَّل أن تمكث في بيت أزواج أخواتها. تستثقلُ أمّي دمها كثيرًا وتفكِّر، «هل هنالك من سيخطبها بعد طلاقها الرابع واقترابها من منتصف الأربعين؟». تحتلّ عمَّتي المطبخ. إنّه المكان الذي تتنفَّس فيه منذ الرابعة فجرًا. تبدأ يومها بالعجن والخبز والقصائد. أغلب القصائد كانت لمحبوب ما. محبوب خرافيّ. قصائد ممتلئة بالعتب والحزن والانتظار. ولا أدري إن كان المحبوب واحدًا من أزواجها السابقين. أو أنّه محبوب مُتخيَّل لا يراه أحد سواها. لا تكترثُ للفوضى التي تحدثها في مطبخ أمّي. لم تكن معنيَّة بالتنظيف أو بغسل الأطباق أو بغسل الثياب حتى. إنَّها تستجيب لرقصها وحركة جسدها على وقع الروائح وذلك المزج المتقن للنكهات. لا تشعر أمّي بارتياح لأسباب أبعد من لسان عمَّتي وغرابتها، ربَّما لأنّ أبي وأخوتي يشعرون بالامتنان لعمَّتي ويشكرونها على الأطباق الشهيَّة التي لا يمكن لأمّي أن تصنع مثلها أنا أضع هذا الأمر كاحتمال وارد وحسب. رغم أنّ أبي وأخوتي يتذمَّرون من مسائل أخرى تتعلَّق بصوت عمَّتي وجنونها فلم يعد ردع امرأة أربعينيَّة مُمكنًا كما قد يفعل أبي مع بناته الصغيرات.

تطفو عمَّتي كهُلامٍ مُضيء، وتملأُ الكون بصخبها لم أكن لأصدِّق أمّي يومًا وهي تقول: «إنّ عمَّتكِ فقدت مكابحها، ها هي تخرج من قلب أوجاعها، لتصبح مُهرِّجًا تعيسًا». الحقيقة، كثر كانوا يقرنون خفَّتها بالتهريج. لم تكن رزينة. لم تكن ردّات فعلها عاقلة

أبدًا، لقد أوسعت ضربًا أحد أزواجها الأربعة عندما جاء على سيرة أمّها بالعاطل. كما أنّها لم تكن لتخجل أبدًا من أن تغنّي وهي تغسل الملابس جوار الفلج. يُصغي الجميع لصوتها، ويشعرون بأنّ القرية لا يمكن أن تكون هانئة البال بغير هذا الصوت الخاصّ، ولكنَّهم ما إن يلتقوا ببعضهم بعضًا ـ خارج انبهارهم بها ـ حتى ينهشوا لحمها الفتيّ.

تقول عمَّتي: «أعطاني الله صوتي لأغنّي به. لا لأخبِّئه»، لم تكن تصغي إلَّا لقلبها، وكانت دومًا امرأة مطلوبة رغم كلّ ما ينسج حولها من قصص، فما إن تتطلَّق من زوج حتى تهبّ قبيلة أخرى لخطبتها

لعمَّتي سُمرة أخَّاذة، عينان عميقتان، وجنتان مشرئبَّتان، أسنان صغيرة كحبَّات الرمَّان، شفاه صغيرة مُتورِّدة لكثرة ما تعضُّ عليهما وأكثر ما يمكن أن تُحسد عليه عمَّتي ذاكرتها تحفظ أشعارًا وقصائد وحكايات ولا تنسى شيئًا البتَّة. الحكايات طازجة في رأسها. وحتى عندما تُكرِّر الحكايات والأشعار يبدو لنا كأنَّها تقولها لأوَّل مرّة.

إلى جوار المرح والشعر والفصاحة المُدهشة لامرأة لم تدخل مدرسة ولا كُتَّابًا، كانت عمَّتي بالغة الغضب. تثور كمرجل. وكنَّا أنا وأخوتي نتغامزُ ونقول كلمة «مرجل» دلالة على أنّ مرجلاً ساخنًا سيقذفُ حممًا ناريَّة عمّا قريب. كنتُ أحبّها رغم أنّي لم أسلم يومًا من لسانها اللّاذع، ويدها القويَّة. لقد حصل وأن تجرَّأتْ ذات يوم وضربتْ قطّي الرمادي على رأسه. كان ذلك بعد أن تجرَّأ كعادته واقترب من صحن الغداء. لم يكن ذلك مستهجنًا في بيتنا. لم نكن لنطرد قطًّا يجاورنا على أيَّة حال. لكنَّها هوت على رأس القطّ بظهر

ملعقة الغرف. داخ القطّ وترنَّح على مرأى من دهشتنا، ثم ركض صوب المزرعة مُشوَّشًا لا يلوي على شيء. اختفى ولم يدخل بيتنا منذ ذلك اليوم. وعندما واجهتها باحتمال أن يكون قد مات تحت شجرة بعيدة. مات متألِّمًا مات وهو يكنّ لها الكراهيَّة الهائلة، تغيَّر وجهها، بدا لي حزينًا وشاحبًا، وبعد تفكير طويل قالت: «ماذا لو صمتُ ثلاثة أيَّام. لن يغضب الله منِّي بالتأكيد». لا أعرف العلاقة جيِّدًا بين صيام عمَّتي وموت القطّ. حاولتُ مرارًا بعقلي الصغير أن أجد رابطًا مُقنعًا، وعجزتُ عن ذلك!

غياب القطّ الأبدي لم يُغيِّر دهشتي بعمَّتي وإعجابي بخفَّتها العجيبة. كمٌّ هائل من الحكايات تنسلّ من فمها، قصصٌ شتَّى ولا تُحصى، ولا يمكن لأحدنا أن يشبع من رهافتها ورغم القسوة الشديدة والعنجهيَّة التي تبدو ظاهرًا، إلَّا أنّ الحكايات التي تسردها تكشفُ عن حزن شفيف.

حتى إنّها حوّلت زواجاتها الفاشلة لحكاية صالحة للتندُّر. لم تكن تتحفَّظ عن قول شيء. تكبحها أمّي، وتذكِّرها بوجود أشياء لا تُحكى أمام الأطفال، ولكنَّها تحكي وتحكي ولا تملّ أبدًا. الجارات لا يصبرن عنها. عمَّتي شهيَّة كالحلوى ولا تُقاوم. ممتلئة بالحيويَّة. أبي يقول دائمًا: «ممتلئة بالحُمق».

أنا أحبّها عمَّتي الفولاذيَّة. لم يُدمِّر بهجتها شيء. لا أبي ولا أمّي ولا غليان المرجل في روحها، ولا حتى الأزواج الذين عبروا جسدها، لم يدمِّرها سوى النسيان. كنتُ أركض خلفها وأدوِّن الشعر والحكايات في أوراقي المدرسيَّة، خوفًا من أن تطير من رأسها،

وعمَّتي تضحك وتقول: «لا يمكن للشعر والأغاني أن يطيروا يا زبيدة». تغضب أمّي وتقول: «ستصبحين مثلها». صحيح أنَّها قتلت قطّي الرمادي يومًا، ولكنّي لم أجد شبهي بها أمرًا سيِّئًا. لها إيقاع خاصّ، وهي يومًا لم تجفل من الحياة رغم كلّ القصص التي عبرتها. كانت تجابه على طريقتها الخاصَّة. بصيغة أدقّ. تجابه الحياة بالمادَّة الطازجة والطريَّة الثائرة من أعماق بئرها السحيق.

عندما طلبتْ منّي أن أُرسل طبقًا لبيت الجيران، نسيتُ الوقت ومكثتُ أشاهد التلفاز في بيت الجيران، بينما كانت عمَّتي تغلي وتغلي. كان عليّ توقُّع أيّ شيء. أن تلقي بجسدي في الهواء مثلاً أو أن تنتف لحمي، أن تشتمني، أو تكسر الطبق الفارغ فوق رأسي. لكنَّها فضَّلتْ ربطي في النخلة تحت حرارة الشمس العالية. حتى إنَّ أمّي لم تتمكَّن من فكّ وثاقي، والغضب يتطاير كالشرر من عينيها. عندما هدأتْ عمَّتي، قالت شعرًا جميلاً ومؤثِّرًا، وكأنَّما تعتذر على طريقتها.

لا أدري! هل كنتُ أفهمها حقًّا أو أنّي مُنجذبة كالمسحورة لطباعها غير المألوفة، فعمَّتي امرأة بردَّات فعل غير متوقَّعة. ما أنا متأكِّدة منه أنّها لم تكن تنتفض عندما أرغب بكتابة شيء ممَّا تقول، بل تجلس كطفلة مهذَّبة ونجيبة وتغرف لي من بئرها

رغم كلّ ما لحقني من أذى من مرجلها الثائر، كنتُ أنجرفُ وأتماهى في روحها التي أودّ لو أنّ بي منها نصيبًا تقول الجارات: «طالعة على عمَّتها»، لم تكن تلك شتيمة كما تظنّ أمّي. كنتُ أشعر بالرضا، وأرغب حقًّا ببعض منها ومن جنونها. لكن لم تكن عندي

جرأتها ولا شجاعتها ولا حتى مرجل غضبها الهائج. كنتُ أتمثَّل جنونها فيما أكتب. أغرف من نزفها لأعوام طويلة. تأكَّدتُ في لحظة ما أنّ بئر عمَّتي مُعبَّأ بالجنّيَّات، وهنّ اللواتي سيحوِّلنها إلى سندريلَّا فاتنة. وكم كنتُ أغبطها آنذاك!

لكنْ، ثمَّة ما حصل لبئر عمَّتي مزنة. لقد جفّ. لحسه ألزهايمر كما قال الطبيب. أمّي وأبي والجيران قالوا: «إنّها العين التي تصيب ولا تخيب». الطبيب أكَّد لأكثر من مرَّة أنّه جين وراثيّ، قلتُ في نفسي: «سيجفُّ بئري أنا أيضًا كبئر عمَّتي»، ولكن وقبل أن يحدث ذلك أرغب بشدَّة لو تمكَّنت. لو تمكَّنتُ من قول حكاية جيِّدة. حكاية واحدة وحسب.

بدأ الأمر بنسيان متكرِّر للطبخة فوق النار. نجونا بأعجوبة لأكثر من خمس مرَّات من حرائق مُحقَّقة. ثم بدأت عمَّتي تنسى الأحداث وتشكِّك في بعضها. تسأل عن الأشياء لأكثر من مرّة. لم تنس يومًا الشعر والحكايات، كان حاضرًا بكلّ وهجه على لسانها. شعرتُ أنّ الأمر مخيف عندما بدأتْ تنسى أسماء أقربائنا، ويتطلَّب الأمر منها جهدًا كبيرًا لتذكّرهم. الأمر جعلها تحزن. لقد حزنتْ بشدَّة حقًّا. وتدهورت حالتها بسرعة بسبب الحزن. فجأة وجدنا عمَّتي تنسى موقع المطبخ. تنسى موقع دورة المياه. انتهى الأمر بها لأن تقضي حاجتها في ثيابها. كانت صغيرة وجميلة في أواخر الأربعين من عمرها، أصغر من أن تُصاب بالخرف. لكنَّ الطبيب لم يقل خرفًا. قال بدقَّة: «إنَّه ألزهايمر». كان اسمي والشعر والحكايات أكثر ما يتردَّد على لسانها وإن كان بصورة غير دائمة. وكنتُ أكتب كلّ ما تقوله في تلك

المناسبات المتفرِّقة والنادرة من التذكُّر الذي تغافلُ فيه ألزهايمر، آكل الحكايات والأشعار والأسماء.

ذات يوم، ومن دون مقدِّمات كثيرة، وجدنا الكلمات غير قادرة على أن تخرج من حلق عمَّتي الجافّ، ولا حتى اسمي. حاولتْ مرارًا ومرارًا أن تجرّ الكلمات، لكن لسانها العنيد لم يحمل كلمة واحدة إلى مسامعنا. ظلَّت تحرِّكُ رأسها غير مُصدِّقة ذلك العجز الذي تمكَّن منها. تلك العينان وحسب، توحيان بقليل من الحياة، وحدهما اللتان تُشيران إلى كمٍّ هائل من الانفعالات التي تعتملُ في روحها، ونعجزُ آنذاك عن تصوُّرها.

تحرقني بنظراتها كلّ يوم. تلك النظرات لم تكن فارغة، لكنَّها أيضًا لا تقولُ شعرًا، وليست ممتلئة بحمم المرجل الثائر. تلك النظرات لم تكن متأمِّلة أو سابحة في حلم بهيّ. كانت أكثر ما تكون فزعة. أمّي قالت: «إنّه فزع ما قبل الموت. الله يهديها لم تفعل شيئًا لأجل آخرتها».

أمّي مخطئة بالتأكيد. كعادتها مُخطئة في تقدير كلّ ما يتعلَّق بعمَّتي. وحدي كنتُ أقرأ نظراتها. كلّ ذلك الفزع الذي يأكلُ قلب عمَّتي، لأنَّها لم تكن يومًا لتتصوَّر مجرَّد احتمال ضئيل إمكانيَّة أن يجفّ بئرها ومنذ أن جفّ بئرها ضمر صوتها أيضًا، وتحوّل الغناء الشجيّ لآهات لانهائيَّة. تقول أمّي: «إنَّ الله يغسل آثامها الآن بالعذاب الدنيويّ».

لا يمكنني الآن أن أستعيد عمَّتي بعد ثلاث سنوات من وفاتها، دون تلك النظرات الفزعة، ودون الوقوع في تصوُّر العذاب الهائل

الذي ملأ قلبها، كلَّما نزلت إلى بئرها ووجدته فارغًا!!

تحوَّلت عمَّتي لمادَّة دسمة وكابوسيَّة، تضخَّمت في مناماتي كأذرع أخطبوطيَّة، ولم أتمكَّن من التخلُّص منها كانت تحثّني على شيء ما. شيء لا أدركه. تلك النظرات تقول لي ما لا أفهمه. تُطاردني ولا أتمكَّن من التملُّص منها. تأكَّدتُ في لحظة ما، بيني وبين نفسي أنّ ألزهايمر سيزحف يومًا ما ليأكل حكاياتي أنا أيضًا «إنَّه جين شرس وعنيد»، كما قال الطبيب.

أنا أكتب حقًّا لكي لا تعاود نظرات عمَّتي مزنة الظهور في كوابيسي، أكتبُ لكي لا يجفّ بئري. وكنتُ أفكِّر، «يا الله. ماذا لو منحتني السندريّلات قصصًا مثيرة وصالحة للكتابة»!

الساعة الثانية عشرة

تدقُّ الساعة الثانية عشرة ليلاً يختفي بريق السندريلّات، وكأنّ جنّيّة خبيرة أطفأتْ زرًّا خفيًّا في أجسادهنّ. أصبحنَ عاديّات. وجوه أقلّ نضارة. صدور مُتهدّلة بعض الشيء، ونتوءات مختلفة الأحجام برزت من تحت الفساتين. نمشٌ وحبوبٌ وصبغات لونيَّة غير مُتجانسة، خصلات شعر بيض مُندسَّة وسط السواد أو اللون البنّيّ. أيادٍ كشفت عن شيء من الخشونة، وجوه أصبحت أكبر من المعتاد فجأة، لأنّ تجاعيد غامقة ظهرت تحت الأعين.

هذه الليلة، لم تركض السندريلّات مُسرعات ليختفين عن أعين الناس بعد انطفاء السحر. لم يُغمضنَ أعينهنّ لكي لا يصطدمنَ بالأجساد المتحلّقة حولهنّ. لم تخفق قلوبهنّ بفزع. إنَّهنّ يقفنَ بخفَّة، رغم الكيلوغرامات الإضافيَّة التي زادت للتوّ، فهنالك ما يجعلهنّ مسرورات، ولسنَ بحاجة لأن ينظرنَ في المرايا المخبَّأة في حقائب الأيدي، ليتأكَّدنَ من ذلك. ببساطة. لسنَ مُكترثات لما هنّ عليه

الآن، ولسنَ مُحبطات لأنَّ طاقة السحر نفدت في أوانها الطبيعيّ.

يستيقظ الواقفون من غفوتهم. لا يسألون هم أيضًا أنفسهم عن الساعات التي أنفقوها في مشاهدة السندريلّات. يتحسَّسون تلك البهجة التي تملأهم، ويمضون في حال سبيلهم. إنّهم لا يتذكَّرون القصص التي استمعوا إليها، ولكنْ ينتابهم ذلك الشعور الغامض بالنشوة. السندريلّات يعبرنَ بينهم، فلا تتغيَّر مشاعرهم إزاء التغيُّر الذي أصابهنّ، فلا تزال أعينهم ممتلئة بالإعجاب، وقد يسمعُ بعضهنّ شيئًا من الإطراء المهذَّب.

هنالك ما يجعل الناس يذهبون فجأة إلى محلَّات الورد المنتشرة في أنحاء مسقط. ففي هذه الليلة، لا تُغلقُ محلَّات الورد أبوابها إنَّها تكسبُ بشكل جيِّد، ويفوق أحيانًا ما يكسبونه طوال الشهر. تريد الحبيبات أن تُفاجئ الأحبَّة، ويريدُ الأحبابُ ألَّا يدخلوا منازلهم بأيدٍ فارغة. هنالك من يشتري الشوكولاته أيضًا، وبعض العُشَّاق يأخذون حبيباتهم ليغرسوا أيديهنّ الناعمة تحت أياديهم المُسرفة في الارتعاش.

أزواج السندريلّات وعُشَّاق البعضِ منهنّ، لم يتمكَّنوا من النوم الليلة. فقد صحا الاشتياقُ عارمًا في أفئدتهم. إنَّهم يعرفون أنّ ليلة كهذه لا تتكرَّر إلَّا عبر سنوات خارقة للعادة. يمتلئون بالصبر، ويقبضون على يقظتهم الحادّة والمليئة باللهفة. يقبضون على سؤالهم اليتيم: «متى تصل السندريلّات يا ترى؟». إنَّهم مغرمون جدًّا الليلة، والشوق ينمو على مهلٍ فوق أقفاصِ أرواحهم المرتعشة، ورغم أنّهم أنجزوا أعمالاً كثيرة وشاقَّة هذه الليلة إلَّا أنّ هذا لم يكن مدعاة للنوم العميق كما توقَّعوا، ورغم أنّ بعضهم قد تذمَّر من بعض الأعمال

الإضافيَّة، وبعضٌ ثالثٌ لم يجرِّب الاشتياق منذ زمن بعيد أو نسي كيف يفعل ذلك، إلَّا أنّهم جميعًا أزواجًا وعشَّاقًا كانوا على درجة متساوية من الولع والجنون، وعلى غير العادة، فقد شربوا القهوة بعد أن اطمأنُّوا أنّهم أنجزوا واجباتهم على أكمل وجه، وانتظروا أميراتهم بالقرب من شبابيك غرف نومهم المُضاءة حتى ساعة متأخِّرة من الليل.

تكنسُ السندريلّات طرقات مسقط كفراشاتٍ مُضيئة. تقفز فتحيَّة فتجد جسدها ينطُّ مستجيبًا لخفَّة لمسها للأرض، وكأنَّها نزلت فجأة على كوكب آخر، على الرَّغم من أنّها تحفظُ تفاصيل شارع الحبّ عن ظهر قلب. وتشعر عليا بجناحيْ عصفور عملاقين ينبتان على عمودها الفقريّ. قالت سارة: «لا أعرف كم سيطول بنا هذا الشعور. ما أعرفه جيِّدًا، أنِّي لن أفرِّط به الآن على الأقلّ». تلحقُ بها ريّا قائلة: «لستُ نادمة على هذه الرفرفة والبهجة العجائبيَّة». تبدو تهاني أكثر ثقة وهي تقول: «إنّ أسرارنا التي انتشرت في الهواء، لا تبدو شيئًا مُهمًّا البتَّة الآن». وتعلِّقُ نوف بصوت متحمِّس: «لستُ متأكِّدة، ولكنِّي سأتبعُ حدسكنّ». بينما تفردُ ربيعة يديها مستجيبة للهواء الذي كاد أن يرفعها عن الأرض للتوّ رغم بطلان السحر.

بالكاد تلمسُ أقدامهنّ الأرض. فهنّ لا يشعرنَ بأوزانهنّ، فقط تلك القفزات المتتابعة لنبضات قلوبهنّ، وهنّ عائدات إلى بيوتهنّ. ثم ما لبثنَ أن تفرَّقنَ، وسارت كلّ واحدة منهنّ في طريقها. يا لذلك الاشتياق الذي شعرنَ به لحظتها للأمراء المنتظرين وللبيت وللعشَّاق في المواعيد السرِّيَّة!

في ذلك الوقت، كان رامون وعلى غير العادة يبتسم. لقد انجلى

حزنه حقًّا ها هو الآن يتحوَّل إلى صائد أحذية حذق، بعدما تعمَّدت السندريلّات ترك فُرد أحذيتهنّ في أماكن من السهل اكتشافها.

وكنتُ أنا أركضُ في الاتِّجاه الآخر تمامًا، وبين يديَّ كنزي الهائل والمُضيء. كنتُ أرقصُ جوار أعمدة الإضاءة الطويلة والممتدَّة على طول شارع الحبّ، حتى إنّه تهيَّأ، لي في لحظة سُكْرٍ أخَّاذة، أنّ أعمدة الإضاءة أُمراء وسيمون جدًّا، وما إن أتعلَّق بذراع أحدهم وأفلتها، حتى أتعلَّق بذراع الآخر والذي لا يقلُّ جرأة وجمالاً عن سابقه.

امتدّ رقصي حتى ساعات الفجر الأولى، وأنا أصرخ لكلّ الأمراء الذين راقصوني، مُتعمِّدة ألَّا أفلت فردة حذائي هذه المرّة: «إنّ بئر جنِّيَّاتي ممتلئ الآن يا عمَّتي مزنة، ولن أجفّ. لن أجفّ».

النهاية

مكتبة الرمحي أحمد

تختفي جنِّيّاتُ مسقط لتحلّ قواهنّ السحريّةُ في السندريلّات. تُحدِّثنا زُبيدة عن طقوس العشاء الشهريّ، الذي تحكي خلاله كلٌّ منهنّ تجربتَها ومأزقَها ومخاوفَها وصراعاتِها:

فتحيّة تخشى الصورةَ المُعلّقة، وسارة تدفنُ شتائمَ جدّتها، ونوف تمنعُ جسدَها من التفتُّح، أمّا ربيعة فلا تتخلّى عن الركض أبدًا. تهاني لا تحبُّ بناتها السارقات، وريّا الفلّاحة لم ترسل الدمعَ في وداع «الخِصْب»، بينما عليا تُخبِّئ رسائلَ آليخاندرو وآنا كرستينا، وزبيدة ترفضُ أن تجفّ بئرُها. وحده الحكيُ يخفِّف الآلامَ والبؤس، ويحوِّلهنّ إلى سيِّداتٍ جميلاتٍ ومُدهشات.

هدى حمد: كاتبة عُمانيّة، صدرتْ لها ثلاثُ مجموعات قصصيّة، وروايتان، آخرهما رواية التي تعدّ السلالم، عن دار الآداب، في إطار «محترف نجوى بركات».

دار الآداب

هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
بيروت - لبنان

ISBN: 978-9953-89-523-9

9789953895239

تصميم الغلاف نجاح طاهر
عن لوحة للفنانة أسماء الأغا... بتصرف